قصة وتاريخ
الحضارات العربية

أول موسوعة من نوعها حديثة وبالالوان تعالج نشأة البلدان العربية واحداثها حتى ايامنا هذه

٢٧ ـ ٢٨

تاريخية ـ جغرافية ـ حضارية وادبية

شعراء العرب
وأدباؤهم

(العصر الاندلسي وعصر النهضة)

قصة

و

تاريخ

الحضارات العربية

٢٧ ـ ٢٨

Edito Creps, INT- 1998 -1999

BEYROUTH ,TEL :01/586207 - 01/586219 - 03/240824 - FAX 009611584391

الفصل الاول

العصر الاندلسي

شعراء العصر الأموي في الأندلس

١ ـ يحيى الغزال

هو يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال. ولد سنة ١٥٦هـ وترعرع في عهد عبد الرحمن الداخل. عاصر أربعة من أمراء بني أمية فضلاً عن الداخل، وهم هشام بن الداخل وابنه الحكم وعبد الرحمن بن الحكم ومحمد بن عبد الرحمن. وهو يذكر ذلك في أرجوزته التاريخية فيقول:

أدركت بالمصر ملوكاً أربعة   وخامساً هذا الذي نحن معه

كان يحيى بن حكم جميل الوجه طويل القامة قوي البنية، ولذلك لقب بالغزال. وكان ذا معرفة بعلم النجوم فسماه المقري «العرّاف». أما شعره فجاء بعيداً عن التكلف قريباً إلى الطبع، وهو يعتمد السرد القصصي ككثير من قصائده التي يروي فيها رحلاته وجولاته. يميل يحيى إلى السخرية الدالة على ميله إلى الفكاهة وهذه السخرية تصل به أحياناً إلى مستوى المرارة في النظر إلى حقائق الحياة. كان لشيخوخته تأثير في شعره فاتجه به إلى الوعظ، كما برز عنده طابع الزهد الذي ترجمه بأبيات تعكس تجربته في الحياة وصدق شعوره. كانت وفاة يحيى بن حكم الغزال في حدود عام ٢٥٠هـ.

٢ ـ مؤمن بن سعيد

هو مؤمن سعيد بن إبراهيم بن قيس. ولد في قرطبة واشتهر في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن. اتصل بالأمير مساعد بن محمد وبالقائد هاشم بن عبدالعزيز ومدحهما. كان ميالاً إلى التهكم يتبع زلات الناس ولا سيما الخصوم فيتندر ويهجو.

إنّ إطلاق مؤمن العنان للسانه كان سبباً لنهايته. فقد توجه القائد هاشم بن عبدالعزيز على رأس قوة لقمع ثورة في بطليموس فوقع في كمين وأسر.

فشمت به مؤمن ونظم قصيدة يتعرض فيها له ويمدح خصمه وابن عمه عمر. ومما جاء فيها:

تصبح أبا حفص على أسر هاشم ثلاث زجاجات وخمس رواطم
وبح بالذي قد كنت تخفيه خفية فقد قطع الرحمن دولة هاشم

حفظها له هاشم وتغير عليه ثم خلص من الأسر وراح يسعى لدى الأمير للإيقاع به ونجح في إلقائه بالسجن. لم تنفع قصائد المدح والاستعطاف فبقي مؤمن مسجوناً حتى وفاته سنة ٢٦٧هـ.

٣ ـ محمد بن يحيى القلفاط

هو أبو عبدالله محمد بن يحيى القلفاط القرطبي، عاش في عهد الأمير عبدالله بن محمد وأدرك خلافة عبد الرحمن الناصر. وقد شهدت البلاد في عهد الأمير عبدالله ثورات أضعفت السلطة كثورة ابن حفصون وثورة أبي حجاج في إشبيلية وسعيد بن جودي في غرناطة. هذا الواقع حمل القلفاط على هجاء الأمير عبدالله لضعفه في قصيدة جاء فيها:

ما يرتجي العاقل في مدة الرجل فيها موضع الرأس

كان القلفاط مستهتراً ميالاً بطبعه إلى العبث يتهكم بالمؤدبين ويلجأ إلى صنوف الحيل للعبث بهم. كما عابث الشعراء وفي طليعتهم ابن عبد ربه الذي صادقه ثم هجاه. وإلى جانب اهتمامه بالشعر كان القلفاط متمكناً من أسرار اللغة، فقد عدّ من النحويين وأورد له الزبيدي قصيدة جمع فيها بعض المسائل اللغوية والأحاجي النحوية ولم يكن يجاريه في عصره سوى صديق الحكيم. توفي القلفاط في حدود عام ٣٠٢هـ.

٤ ـ ابن عبد ربه

هو أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الكندي، من شعراء قرطبة. عاصر الدولة الأموية زمن الناصر وابنه الحكم وحفيده هشام. أخذ صناعة الشعر عن أبي بكر بن هذيل الكفيف. واشتهر في عهد الحكم فأصبح من

المقربين. إتصل الرمادي بكثير من الأمراء الأمويين، كفرحون بن عبدالله بن عبد الواحد وعبدالعزيز بن المنذر الأموي. وفي أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر نال الرمادي بعض الحظوة. وفي هذه المرحلة كان الرمادي قد كبرت به السن وأمسى فقيراً وقد توفي سنة ٤٠٣هـ.

ترك الرمادي قصائد في مختلف الفنون المعروفة في عصره وأهمها عنده المدح والوصف والغزل والخمر، ويمتاز شعره بالسهولة واعتماده الصور وميله إلى السخرية في بعض قصائده.

٥ ـ أبي دراج القسطلي

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن عيسى بن دراج الأندلسي، نسبة إلى قسطلة من أعمال جيان. ولد عام ٣٤٧هـ (٩٥٨م). وهو من شعراء عهد الفتنة. نال حظوة لدى المنصور بن أبي عامر فتألب عليه النقاد وادعوا عليه عند المنصور أنه ينتحل شعره، فعقد له المنصور مجلس امتحان واقترح عليه النظم في موضوع معين فنظم ما أعجب المنصور وكذب دعوى الذين اتهموه بالسرقة، ودافع عن نفسه بقصيدة مشهورة، مطلعها:

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا وعطف نعماك للحظ الذي انقلبا

بين سنتي ٤١٢ و٤٥٢ انتقل إلى «دانية» حيث مجاهد العامري وتوفي فيها سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م. يعد أبي دراج في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين وهو أحد الشعراء الفحول. تأثر تأثيراً واضحاً بشعر المتنبي وابن هاني فسار على خطاهما فجاء بشعر فيه المعاني البعيدة، يساعده في ذلك خيال مبدع وقدرة على التلاعب بالمعاني وقد عارض شعر المتنبي وأبي نواس وابن هاني فما أسف.

٦ ـ ابن شهيد

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك الشاعر والناثر. ولد في قرطبة سنة ٣٨٢هـ (٩٩٢م) في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. أقام أبي شهيد في قرطبة يودع

خليفة ويستقبل آخر. وعندما تم الأمر للمستعين اتصل به أبي شهيد ومدحه، لكن الحساد أوقعوا بينهما فساءت العلاقة بينهما.

أصيب شهيد بداء الفالج ومات سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٥م).

من خصائصه الشعرية أن الموسيقى الهادرة تتزاحم مع الصور المتنوعة في بعض قصائده فإذا تحدث عن الأصوات جاءت مدوية، ولعل لذلك صلة بثقل سمعه. وكردة فعل على سمعه الثقيل كان يميل في الشعر إلى الحوار. أما بالنسبة إلى النثر فقد ترك أبو شهيد رسائل تعالج قضايا اجتماعية تاريخية أدبية ضمنها آراءه النقدية، وأشهرها رسالة «التوابع والزوابع».

٧ ـ أبي هاني الأندلسي

هو أبو القاسم وأبو الحسن محمد بن سعدون الأزدي المعروف بابن هاني الأندلسي. من شعراء المغرب والأندلس المشهورين وقد لقب بمتنبي المغرب. ولد قرب إشبيلية سنة ٣٢٦هـ (٩٣٨م). وأصل أبيه من قرية من قرى المهدية بافريقيا وكان شاعراً. انتقل إلى الأندلس حيث ولد محمد زمن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر. نشأ في إشبيلية ثم انتقل إلى قرطبة وتأدب بدار العلم فيها. توفي سنة ٣٦٢هـ (٩٧٢م).

أجمع كبار الأدباء في الأندلس على جعل ابن هاني في الطبقة الأولى. قال لسان الدين بن الخطيب: «كان من فحول الشعراء لا يدرك شأوه ولا يشف غباره». أكثر شعر أبي هاني جاء في المدح، كما يعد من شعراء الوصف ولكنه يجنح بهذا الموضوع إلى الغلو والمبالغة. وهو يهتم باللفظ اهتمامه بالمعنى حتى أنه يسخر المعنى أحياناً من أجل اللفظة. على صعيد آخر، نستطيع من شعر ابن هاني أن نتعرف إلى مذهبه وميوله السياسية فقد كان شيعياً يذهب مذهب الفاطميين في الحلولية.

شعراء عصر ملوك الطوائف

١ ـ ابن زيدون

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله المخزومي. ولد في قرطبة سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٤م). نشأ في بيئة فقه وعلم وأدب. توفي أبوه وهو في الحادية عشرة من سنيه فكفله جده، وواصل تحصيل الثقافة فتعمق في علوم الفقه والتاريخ واللغة والأدب ثم نبغ بالشعر والنثر. ساعد أبا الحزم بن جهور في الوصول إلى الحكم فعهد إليه الحاكم الجديد بالوزارة وكلفه السفارة لدى ملوك الطوائف فلقب بذي الوزارتين. توفي ٧ في رجب سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م).

يعتبر ابن زيدون أسطع وجوه الأدب الأندلسي وأطولهم باعاً في النظم وأكثر الشعراء شهرة. وحظيت رسائله باهتمام علماء اللغة والأدب، وأكثرها شهرة النونية المعروفة ومطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

تناول شعره مواضيع مختلفة ولا سيما الغزل والمديح والوصف والشكوى والعتاب. تميّز شعر أبن زيدون بحسن الصياغة وغنى المفردات ودقة اختيارها، وأول ما يلفتنا بروز شخصيته ووضوح نفسيته. لا تأخذ شخصية ابن زيدون شكلاً واحداً بل تتغير وتتبدل بحسب ما تفرضه الظروف والأحوال. هذا التغيير هو الذي يعطي شعره حيوية لافتة وحياة دائمة. لقب ابن زيدون «ببحتري المغرب» وذلك لسببين: الأول هو طول النفس في النظم، والثاني هو ولع ابن زيدون بالزخرفة، فقد أكثر من الصنعة وجاءت أبياته كشعر البحتري غنية بالصور البيانية والمحسنات البديعية.

٢ ـ المعتمد بن عباد

هو أبو القاسم محمد بن عباد المعتمد على الله أشهر ملوك الطوائف

في الأندلس. ولد سنة ٤٣١هـ (١٠٤٠م). تلقى دروسه في بلاط أبيه المعتضد والذي كان مقصد رجال العلم والأدب. بدأ حياته السياسية عاملاً لأبيه المعتضد على ولبة، ثم حاصر مدينة شلب فسقطت بيده وولي عليها، وفيها برزت مواهبه الشعرية. وفي سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) توفي المعتمد بن عباد.

مر شعر المعتمد بمرحلتين متناقضتين، مرحلة تصور الحياة اللاهية تتناول شعر الفخر والوصف والغزل والاستعطاف؛ ومرحلة ثانية تصور الحياة المتألمة في الأسر فكان الألم المحرك الأول لشاعريته وفجر عبقريته شعراً وجدانياً خالصاً معبراً عن حالات الشاعر الأسير. بعض ما جاء في شعره.

غريب بأرض المغربين أسير	سيبكي عليه منبر وسرير
مضى زمن والملك مستأنس به	وأصبح منه اليوم وهو نفور
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة	أمامي وخلفي روضة وغدير

٣ ـ أبو بكر بن عمار

هو أبو بكر محمد بن عمار، ولد قرب شلب سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) ودرس على جماعة من العلماء والشيوخ، ثم انتقل إلى إشبيلية ومدح المعتضد بن عباد فاشتهر بعد أن كان خامل الذكر. قتل أبو عمار بيد المعتمد سنة ٤٧٧هـ (١٠٨٥م) بعد سماعه يهجوه:

مما يزهدني في أرض أندلس	ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

يمتاز شعر أبي عمار بالرقة والطبيعة وحسن الوقع والبعد عن الكبر والتكلف كما يلجأ فيه إلى الصور المستوحاة من بيئته فتكثر عنده الاستعارات والتشابيه الناعمة، وأهم ما تناوله المدح والهجاء والوصف والاستعطاف.

٤ ـ أبو بكر بن اللبانة

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي الأندلسي المعروف باسم ابن اللبانة. ولد في مدينة دانية شرقي الأندلس، ولم تذكر الكتب التي أرّخت له تاريخ مولده ولا ذكرت شيئاً مهماً عن نشأته. كان من شعراء البلاط العبادي

ميزه المعتمد بن عباد وجعله من المفضلين لديه وبالغ في تكريمه، وقد أحب ابن اللبانة أميره فلازمه في أيام سعده وزاره في أيام محنته. توفي في ميروقة سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م). اهتم ابن اللبانة فضلاً عن الشعر التقليدي بفن الموشحات وعالج مختلف المواضيع، لا سيما المدح. ومن شعره المشهور قصيدته التي نظمها عقب سقوط الدولة العبادية وفيها يعبر عن حزنه:

تبكي السماء بمزن رائح غادِ ... على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها ... وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

٥ ـ ابن حمديس

هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي السرقوسي الصقلي. ولد في سرقوسة جنوبي صقلية سنة ٤٤٦هـ (١٠٥٥م) ونشأ فيها. ترك الشاعر وطنه قبل سقوطه بيد النورمان، ولعل الهرب من واجب الدفاع عن الوطن كان يؤنب ضمير الشاعر في ديار الغربة فعوض عنه بالأسف والحنين حتى آخر أيامه واستبدل بتخاذله وهربه دعوة المتخلفين إلى البقاء وكفر عن نكوصه باثارة الحماسة في قلوب المجاهدين:

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي ... إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم
دعوا النوم إني خائف أن تدوسكم ... دواه وأنتم في الأماني مع الحلم

توفي سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م). كان ابن حمديس وافر العناية بشعره جمعه بنفسه في ديوان كبير وفصل فيه مناسبات بعض القصائد فأفادنا الكثير من الشؤون المتعلقة بحياته وهو لم يختم الديوان بل كان يضيف إليه شعره المستحدث كلما عرض له شيء من ذلك.

٦ ـ ابن خفاجة

هو أبو اسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله خفاجة. ولد في جزيرة شقر من أعمال ڤلنسية شرقي الأندلس سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م). حياة أبي خفاجة غير مفصلة في المصادر، إنما نعلم من خلال ما ذكر عنه أنه كان

صاحب لهو ومجون في شبابه، فلما تقدمت به السن أقلع عن الغواية وسلك سبيل الرشاد.

توفي ابن خفاجة في شقر في شوال سنة ٥٣٣هـ (١١٣٩م). عالج الأغراض المعروفة كالغزل والوصف والمدح والرشاد والشكوى والعتاب والفخر إلا أنه يختص بالنزعة الأندلسية التي يتمثل فيها شغف الشاعر بطبيعة بلاده واستسلامه إلى سحر جمالها.

تمتاز لغته بالرقة والنعومة واشراق الديباجة ويحلّيها بالاستعارات والتشابيه وهو يعد من أشهر شعراء الأندلس وأنجحهم في مجال الوصف كوصفه لنهر شقر:

لله نهر سال في بطحاء ... أشهى ورداً من لمى الحسناء
وغدت تحف به الغصون كأنها ... هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً ... متلوياً كالحية الرقطاء

٧ ـ ابن الزقاق

هو أبو الحسن علي بن عطية بن مطرف اللحمي البلنسي المعروف بابن الزقاق. مدح الأكابر ولكنه لم يعمر فمات وهو دون الأربعين سنة ٥٢٨هـ (١١٣٤م). اشتهر بالغزل، ومن شعره قوله:

وساق يحث الكأس حتى كأنما ... تلألأ منها مثل ضوء جبينه
سقاني بها صرف الحميا عشية ... وثنى بأخرى من رحيق جفونه
هضيم الحشى ذو وجنة عندمية ... تريك جني الورد في غير حينه

٨ ـ ابن عبدون

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدالله بن عبدون الفهري، وزير أندلسي وأديب مشهور جمع بين الكتابة والترسل والشعر والحديث ولقب بذي الوزارتين. ولد في يابرة وأعجب بثقافته عمر المتوكل بن الأفطس أمير يابرة وصاحب بطليوس فجعله كاتب سره. ثم صار وزير دولة بني الأفطس حتى انهيارها، فاضطر إلى الالتحاق بدولة المرابطين وغدا كاتبها حتى وفاته في يابرة سنة ٥٢٩هـ (١١٣٥م).

شعراء عصر بني الأحمر

١ ـ ابراهيم بن سهل الاشبيلي

هو أبو إسحق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الأشبيلي الأصل، ولد في حدود سنة ٦٠٥هـ (١٢٠٨م). انتقل إلى سبتة بالمغرب واتصل بواليها ابن خلاص وكتب له. وحصل أن خرج معه في زورق فانقلب بهما فغرقا سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١م). كان ابن سهيل يهودياً، فأسلم بعد أن قرأ مع المسلمين وخالطهم. ترك مجموعة قصائد جلها من الغزل إضافة إلى النظم التقليدي وموشحات رقيقة. من أشهر قوله:

سل في الظلام أخاك البدر عن سهري ... تدري النجوم كما يدري الورى خبري
أبيت أسمع بالشكوى وأشرب من ... دمعي وانشق ربا ذكرك العطر
حتى أخيل أني شارب ثمل ... بين الرياض وبين الكأس والوتر

٢ ـ ابن خميس التلمساني

هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن محمد الحجري الرعيني المعروف بابن خميس التلمساني. شاعر وأديب مغربي ولد سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٨م). ولما أتقن اللغة وأساليب الترسل اتصل بملوك تلمسان فكتب لهم ومدحهم. مات قتلاً في شوال ٧٠٨هـ (١٣٠٩م).

٣ ـ لسان بن الخطيب

كانت أسرة لسان الدين بن الخطيب تعرف ببني الوزير وكانت من أهل قرطبة، ثم انتقلت إلى مدينة لوشة حيث ولد فيها الشاعر سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م). درس القرآن الكريم كتابة وحفظاً على يد عبدالله بن عبد المولى العواد، كما درس العربية على يد أبي عبدالله بن الفخار البيري وأخذ الطب والمنطق عن أبي زكريا يحيى بن هذيل التجيبي. اتصل بالكثير من الأمراء

والحكام فمدحهم وأكرموه، لكن أعداء الخطيب لم يتركوا فرصة إلا وأوقعوه في خلاف مع السلطان أبي العباس فسجنه وأمر بقتله فمات على يد تلميذه ابن زمرك خنقاً في أواخر سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٥م).

تتناول آثار ابن الخطيب الأدب والتاريخ والجغرافيا والرحلات والدين والتصوف والأخلاق والسياسة والطب والبيطرة والبيزرة، كما كان كاتباً مجيداً وشاعراً رقيقاً ومن أصحاب الموشحات المشهورة. من كتبه «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» و«الاحاطة في أخبار غرناطة».

٤ ـ ابن زمرك

هو أبو عبدالله محمد بن يوسف بن أحمد الصريحي المعروف بابن زمرك. ولد في ربض البيازين بغرناطة سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م). تتلمذ على يد الأديب والمؤرخ لسان الدين بن الخطيب فخرجه في فنون الأدب والشعر والسياسة. إلا أنه جحد فضل أستاذه وكافأه بالقتل خنقاً فكان أن جوزي على فعله بمثله، إذ نكبه السلطان وأرسل إليه من قتله في بيته ليلاً سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م).

شعر ابن زمرك رقيق طويل النفس ينسج فيه على منوال أستاذه ابن الخطيب، ولا سيما في فن التوشيح. فمن شعره المشهور قوله:

معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا وأين يشغل اللوام بالعدل باليا
دعاني أعط الحب فضل مقادتي ويقضي علي الوجد ما كان قاضيا
ودون الذي رام العواذل صبوة رمت بي في شعب الغرام المراميا

الموشحات الأندلسية

الموشح هو فن شعري فيه لون جديد من النظم، ظهر في الأندلس في أواخر عهد الدولة المروانية وازدهر في القرن العاشر للميلاد. فيه خروج على وحدتي الوزن والقافية وعناية خاصة بالموسيقى.

الموشح يعني المعلم، أي الموشى والمزخرف. سميت الموشحات بهذا الاسم تشبيهاً لها بالوشاح، وهو عبارة عن نسيج أو جلد يرصح بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها.

أما أقسام الموشح فقد تعددت وتنوعت حتى أنه لم يعد ممكناً وضع نظام يطبق على كل الموشحات. لكن قسماً كبيراً تتبع نمطاً معيناً من هذا التقسيم:

ـ المطلع أو اللازمة أو المذهب. يسمى قفل البداية المطلع ويأتي مستقلاً عن سائر أقسام الموشح وقد تكون قوافي المطلع متفقة أو مختلفة.

ـ القفل هو كلام يتكرر مع كل دور بوزنه وعدد أجزائه وقافيته.

ـ البيت هو كلام يتكرر بوزنه وعدد أجزائه من دون قافيته.

ـ الدور هو مجموع بيت وقفل ولا يدخل المطلع في أي دور.

ـ الخرجة أو قفل النهاية هي آخر قفل في الموشح. والخرجة عند بعض الوشاحين كانت في غاية الأهمية تأتي مختلفة عن سائر الاقفال.

ـ الغصن والسمط: الغصن هو كل جزء من القفل والسمط هو كل جزء من البيت.

أما بالنسبة إلى نشأة الموشح فقد اختلفت الآراء حول كيفية نشوء هذا الفن. لكن المؤرخين الأندلسيين يتفقون على أنه نشأ عندهم ثم انتقل إلى المشرق. أما بداية فن التوشيح فلا ندري بالتحديد متى كانت وعلى يد من

نشأت. وأقدم ما وصل إلينا من هذا الفن هو لعبادة القزاز المتوفى سنة ٤٢٢هـ (١٠٣٠م).

يهدف هذا النوع من الفنون إلى غايات موسيقية، فالمغنون والموسيقيون شعروا بالحاجة إلى تغيير الأصوات والأنغام عن طريق اشتراك عدة مغنين في جوقة تتنوع فيها الألحان. وتعدد المغنين في غناء واحد حمل الشعراء على وضع مقطوعات متنوعة فكانت الموشحات المتعددة الأوزان والقوافي.

يتناول الوشاحون في كتاباتهم مواضيع كثيرة بدأت مع الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة ثم انتقلت إلى المدح والزهد والتصوف. والواقع ان فن التوشيح لم يترك ميداناً من الميادين الشعرية المعروفة إلا وعالجه.

من أبرز الوشاحين الذين اشتهروا في ذلك العصر يوسف بن هارون الرمادي. كان شعره معروفاً عند العامة والخاصة. كذلك عبادة القزاز الذي كان شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية. وأشهر الوشاحين الذين طار صيتهم أيام الموحدين أبو بكر محمد بن زهر المعروف بالحفيد بن زهر وقد كان طبيباً وشاعراً ولقب بذي الوزارتين.

إنتشر فن التوشيح في المشرق بفضل الكثير من الوشاحين. لكن عند سقوط غرناطة انتهى أمر التوشيح في الأندلس واستمر في المشرق. ففي عصر النهضة استخدم سليمان البستاني هذا الفن في بعض مقاطع ألياذة هوميروس التي نقلها إلى العربية.

النثر الأندلسي

بدأت الكتابة في الأندلس خجولة ولم تعرف ذروتها إلا أواخر العصر الأموي وعصر ملوك الطوائف مع ابن شهيد وابن حزم. ارتفع شأن الرسائل التي ساعد على قيامها وتعزيزها اهتمام الوزراء والأمراء بها. فاستقل فن الرسائل عن الكتابة وعالج موضوعات من الحياة واعتمد الخيال في ابتكار الصور. واشتهر في فن الرسائل شعراء كثر، كابن زيدون وابن برد الأصغر ولسان الدين بن الخطيب. إهتم الكتّاب بالتطبيق فلم يتركوا علماً أو فناً إلا بحثوا فيه، وكان لرحلاتهم إلى الشرق ورحلات المشرقيين إلى الأندلس واستقدام العلماء واستنساخ الكتب أثر كبير في بث النهضة الأدبية.

من مشاهير كتاب الأندلس الذين عالجوا الأغراض النثرية المتنوعة:

١ ـ ابن سعيد البلوطي

هو أبو الحكم المنذر بن سعيد بن عبدالله بن عبد الرحمن النغزي القرطبي. نزح قومه إلى الأندلس فأقاموا في فحص البلوط شمالي قرطبة وإليها نسبته البلوطي. ولد سنة ٢٧٣هـ (٨٨٦م). تلقى علومه الأولى في الأندلس ثم جال أقطار الحجاز ومصر وأخذ الكثير من علمائها في علوم الحديث والفقه والكلام واللغة. اشتهر في الأندلس كأديب وخطيب وشاعر وفقيه عالم مجتهد. عيّن قاضي الجماعة في قرطبة. توفي سنة ٣٥٥هـ (٩٦٦م) بالغاً من العمر اثنتين وثمانين سنة.

عرف البلوطي بعمق علمه وشمول ثقافته كما عرف بالخروج عن التقليد في الأحكام إلى مجال الاجتهاد الشخصي وتحكيم العقل ومراعاة الضمير مع تطلب العدل والتجرد والنزاهة. كان جريء الرأي صريح القول قوي الحجة لا تأخذه في نصرة الحق لومة لائم. يلذع بنقده القضاة الكسالى والفقهاء الجاحدين ويجهر برأيه في حضرة الخليفة. ترك أبو سعيد البلوطي

عدة مؤلفات منها «الناسخ والمنسوخ» و«الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله» و«الإبانة عن حقائق أصول الديانة».

٢ ـ ابن أبي زمنين

هو محمد بن عبدالله بن عيسى المعروف بابن أبي زمنين من أئمة الأندلس. ولد سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م) وتوفي سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م). ذكره السيوطي في كتاب «طبقات المفسرين» وقال: كان عارفاً بمذهب مالك بصيراً به ومن الراسخين في العلم متفنناً في الأدب والشعر متقناً لآثار السلف مع الزهد والنسك وصدق اللهجة والإقبال على الطاعة وله «من التصانيف المدونة» و«أحوال السنة» و«حياة القلوب».

٣ ـ أبو بكر الزبيدي

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبدالله بن مذحج الزبيدي. ولد سنة ٣١٦هـ (٩٢٨م). حصل النحو وعلوم اللغة والأدب وسارت شهرته فاختاره الحكم المستنصر لتأديب ولي عهده هشام المؤيد بالله فعلمه الحساب والعربية ونفعه نفعاً عظيماً ونال منه أبو بكر ثروة واسعة. كما تولى قضاء إشبيلية وخطة الشرطة، وكانت وفاته بإشبيلية سنة ٣٧٩هـ (٩٨٩م). ترك مؤلفات عديدة منها طبقات النحويين واللغويين ولحن العامة، الواضح، الأبنية، ومختصر العين.

٤ ـ أبو علي القالي

هو أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان المعروف بأبي علي القالي. ولد سنة ٢٨٨هـ (٩٠١م) في منازجرد من منطقة ديار بكر وفيها نشأ. تتلمذ على يد أكابر علمائها كابن دريد ونفطويه وأبي بكر بن السراج وأبي إسحق الزجاج وأبي الحسن الأخفش، وغيرهم حتى غدا أشهر علمائها. اتصل بعبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله في قرطبة فأكرمه الخليفة وبالغ في إعلاء شأنه وحق به أدباء قرطبة وعلماءها. توفي سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م) في خلافة الحكم المستنصر.

ترك أبو علي القالي مؤلفات كثيرة منها كتاب النوادر وكتاب الأمثال وكتاب البارع وكتاب الإبل ونتاجها، كتاب فعلت وأفعلت وكتاب تفسير السبع الطوال.

٥ ـ ابن خروف

هو أبو الحسن علي بن محمد بن خروف الإشبيلي. نحوي، لغوي من علماء الأندلس. كان ضيق ذات اليد يشتغل بالخياطة. لم يتخذ بلداً موطناً بل كان يتنقل في البلاد طلباً للتجارة حتى توفي في إشبيلية سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م). ترك مصنفات لغوية منها كتاب شرح سيبويه وكتاب شرح الجمل.

٦ ـ ابن حيان

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان، مولى عبد الرحمن الداخل، من أهل قرطبة. ولد سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) وترك كتابين شهيرين: كتاب المبين وكتاب المقتبس في تاريخ الأندلس. يعتبر من أهم مصادر التاريخ الأندلسي وهو المؤرخ الرسمي للدولة المروانية. توفي سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م).

٧ ـ ابن صاعد الأندلسي

هو أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد التغلبي القرطبي ويعرف بالقاضي صاعد وبصاعد المالقي، فقيه عالم فلكي ومؤرخ أندلسي ولد بالمرية سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) عينه المأمون بن ذي النون على قضاء طليطلة حتى وفاته فيها سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م). ترك عدة مؤلفات أشهرها كتاب طبقات الأمم، كتاب جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم، وكتاب صوان الحكم في طبقات الحكماء، ومقالات أهل الملل والنحل.

٨ ـ ابن بشكوال

هو أبو القاسم خلف بن عبدالله بن بشكوال الخزرجي الأنصاري

القرطبي. كان من علماء الأندلس ومؤرخيها. ولد سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م) بقرطبة وتوفي سنة ٥٧٨هـ (١١٨٣م) ولي القضاء مدة ثم انصرف إلى التأليف في السير والتاريخ والحديث والتقوى إلى أن بلغت مؤلفاته نحو الخمسين أنالته شهرة واسعة. أشهر مؤلفاته كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وكتاب الغوامض والمبهمات وكتاب رواة الموطأ.

٩ ـ ابن خاقان

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي، أديب وشاعر كاتب ومؤرخ عرف بغزارة مادته وسعة معرفته وقوة بلاغته، كما عرف بسوء سيرته وفساد أخلاقه وبذاءة لسانه. قتل ذبحاً في مدينة مراكش سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م). اشتهر ابن خاقان بكتابين في التراجم والمنتخبات الأدبية: «قلائد العقيان» و«مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ذيل شعراء الأندلس».

١٠ ـ ابن جبير

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسية رحالة شهير وأديب شاعر. ولد ببلنسة سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م). ثم انتقل إلى شاطبة موطنه الأصلي فدرس اللغة والأدب والفقه وغدا أديباً مشهوراً وشاعراً مجيداً. توفي في الإسكندرية سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م). يعد كتابه «رحلة ابن جبير» من المصادر المهمة فهو جزيل الفائدة في جغرافية البلدان التي زارها وقد أفاد منه كثيراً الجغرافيون والمؤرخون حيث وجدوا فيه مصدراً صالحاً لذلك التاريخ.

١١ ـ ابن سعيد المغربي

هو أبو الحسن نور الدين علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي. أديب، شاعر، رحالة، جغرافي ومؤرخ. ولد بقلعة يحصب في رمضان ٦١٠هـ (١٢١٤م). توفي سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) وقد أفاض المؤرخون بعلمه ولا سيما المقري في كتابه «نفح الطيب». ترك ابن سعيد عدة مؤلفات منها المغرب في حلى المغرب، رايات المبرزين المشرق في

حلى المشرق، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، النفحة المسكية في الرحلة المكية.

١٢ ـ ابن بسام الشنتريني

هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني من أدباء الأندلس المشهورين توفي سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) من أشهر مؤلفاته «كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذي يعد من الأصول الأندلسية التي يعتمد عليها في الكلام على الأدب المغربي. والسبب في تصنيفه هذا الكتاب هو أنه رأى أهل الأندلس صرفوا اهتمامهم إلى أدب المشارقة فغاظه منهم ذلك فأخذ يجمع ما وجد من حسنات دهره. قال في المقدمة: إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا حتماً وتلوا ذلك كتاباً محكماً.

١٣ ـ ابن عصفور

هو أبو الحسن علي بن مؤمن الحضرمي الإشبيلي المعروف بابن عصفور. لغوي، نحوي وشاعر. ولد سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) أخذ عن أبي الحسن الدباج ثم عن أبي علي الشلوبين فختم عليه كتاب سيبويه. كان أصبر الناس على المطالعة وقد أقرأ بإشبيلية وشريش ومالقة ولورقة ومرسية، وكانت وفاته في توسن سنة ٦٦٩هـ (١٢٧١م). من تصانيفه كتاب الممتع، كتاب المفتاح، كتاب الهلال، كتاب الأزهار، مختصر الغرة، شرح المتنبي، سرقات الشعراء.

أقطاب الحركة الفلسفية الأندلسية

١ ـ ابن مسرة

هو محمد بن عبدالله بن مسرة الملقب بالجبلي من أبناء قرطبة. اشتهر بالتقوى والزهد والفضيلة. توفي سنة ٣١٩هـ (٩٣١م). لم يصلنا أي من الكتب التي وضعها، والسبب يعود لاستباحة حرقها. وقد وصلنا اسم مؤلفين فقط: كتاب التبصرة وكتاب الحروف.

تقول فلسفة ابن مسرة بأن الواحد بسيط ومنزه وعنه صدرت المخلوقات وهي على درجات في الرتبة، ويدعوها الجواهر الخمسة. فعن الله عز وجل، وهو الوحدة المطلقة والمادة الأولى، صدر العقل الذي منحه الله العلم الكلي. انتشرت تعاليم ابن مسرة في الأندلس وأقبل عليها الدارسون وكانت هذه التعاليم بداية التحرك الفلسفي في الأندلس.

٢ ـ ابن حزم

هو أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، أشهر ممثلي الثقافة العربية الأندلسية، ولد في قرطبة سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤م). شهد انهيار الدولة الأموية وقاسى من تقلبات السياسة فاعتزل عمله السياسي كوزير وتفرغ للتأليف. في هذه المرحلة بدأت حياته الثقافية المثمرة درساً وجدلاً وتأليفاً في مختلف نواحي الفكر البشري، من الفقه والحديث إلى المنطق والفلسفة والكلام، إلى تاريخ الديانات في عقائدها وبدعها، إلى التاريخ والأدب والشعر والخطابة. توفي سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤م).

ترك ابن حزم مؤلفات عديدة ككتاب «المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار» وكتاب «الأحكام في أصول الأحكام» وكتاب «الإيصال إلى فهم الخصال». ومن آثاره في الجدل والتاريخ كتاب «الفصل في الملل والأهواء

والنحل» وكتاب «جمهرة الأنساب». أما في الأدب النفسي فله كتاب «طوق الحمامة في الألفة والآلاف».

٣ ـ ابن عربي

هو الشيخ محي الدين أبو بكر الطائي المعروف بابن عربي أعظم متصوفة الأندلس. ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ (١١٦٣م) نزح إلى المشرق وبقي فيها حتى وفاته سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م). من مصنفاته المعروفة كتاب فصوص الحكم والفتوحات المكية والتدبيرات الإلهية.

٤ ـ ابن باجه

هو أبي بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبي السرقسطي المعروف بابن باجه. وهو من مشاهير الفلاسفة العرب في الأندلس. انصرف إلى السياسة والعلوم الطبيعية والفلك والرياضيات والموسيقى والشعر والفلسفة والطب، وبرز في الطب بنوع خاص حتى أثار حفيظة زملائه فدسوا له السم فتوفي في فاس بالمغرب سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م). لم يصلنا من مؤلفاته إلا رسالة اتصال الإنسان بالعقل الفعال وكتاب تدبير المتوحد. يدلّ هذان المؤلفان بوضوح على الطابع الإشراقي الذي تتصف به فلسفة ابن باجه، فقد ذهب إلى أن أسمى مراتب المعرفة هي مرتبة النظر المجرد التي يبلغها المرء عن طريق الاتصال بالعقل الفعال ومطالعة المعقولات المجردة.

٥ ـ ابن طفيل

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد طفيل القيسي فيلسوف وعالم أندلسي مشهور، ولد سنة ٥٠٤هـ (١١١٠م) في مدينة وادي آش الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة غرناطة. قرأ كل أقسام الحكمة على علماء زمانه حتى صار من أكابر الحكماء وعلى اطلاع واسع بالفلك والرياضيات والطب والشعر وأسلوبه الرشيق. توفي سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م).

ذكر لسان الدين بن الخطيب أن ابن طفيل وضع كتابين في الطب، وذكر الغزيري أن لابن طفيل قصيدة طبية محفوظة في مكتبة الأسكوريال. لم يصلنا من آثار ابن طفيل الفلسفية إلا كتاب «حي بن يقظان» وهو قصة فلسفية يقول فيها أن حي بن يقظان ولد في جزيرة هندية تحت خط الاستواء ونشأ منعزلاً عن الناس في كنف ظبية ربته فاغتذى بلبنها وتدرج في المشي وما زال يحكي أصوات الظباء وسائر الحيوانات ويهتدي إلى أفعالها حتى كبر وترعرع واستطاع بالملاحظة والفكر والتأمل أن يحصل على غذائه وأن يكشف بنفسه مذهباً فلسفياً يوضح به سائر حقائق الطبيعة. إن المذهب الذي توصل إليه ابن طفيل في قصته هو المذهب العقلي، فهو يعتقد أن في وسع الإنسان أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول ويصل بقواه إلى معرفة الإله والعالم.

٦ ـ ابن رشد

ولد القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد في قرطبة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م). درس الكلام والفقه والأدب وألف في هذه العلوم. أما الطب فترك فيه تآليف كثيرة، كما كان يتمتع بمكانة رفيعة بين الأطباء. توفي في أواخر سنة ١١٩٨م في مراكش. ترك عدداً كبيراً من المؤلفات أهمها: رسالة التوحيد والفلسفة، جوامع ما بعد الطبيعة، الخطابة لأرسطو، تلخيص كتاب الأخلاق والبرهان لأرسطو، مقالة في حركة الفلك، شرح كتب جالينوس الطبية....

تكمن أهمية ابن رشد الموقف الواضح والجريء الذي وقفه من الفارابي وابن سينا وعلى تجرده في بسط مذهب أرسطو ونصرته بحيث عرف في الأواسط الفلسفية في الغرب اللاتيني في القرن الثالث عشر باسم الشارح.

٧ ـ ابن عباد الرندي

هو أبو عبدالله محمد بن أبي إسحق إبراهيم بن أبي بكر بن عباد الرندي نسبة إلى مدينة رندة بالأندلس. من أشهر متصوفي الأندلس علماً وعملاً وإرشاداً. ولد في رندة سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م). تلقى تربية روحية

صحيحة فحفظ القرآن الكريم بعناية أبيه وتلقى أصول العربية على يد خاله وطلب العلم حتى برع فيه. توفي في رجب سنة ٧٩٢هـ (١٣٩٠م).

أجمع المؤرخون على أن ابن عباد الرندي كان فقيهاً خطيباً خاشعاً عفيفاً يحب الطيوب والبخور ويخدم نفسه بنفسه، لم يتزوج ولم يملك أمة، عاش حياة البتولية مسيطراً على الإغراءات المادية المتنوعة. ترك ابن عباد الرندي مصنفات كثيرة أهمها «غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية» و«الرسائل الكبرى» و«الرسائل الصغرى».

نماذج

من الشعر الاندلسي

أبو بكر بن زهير

ما للمُولَّه   من سُكره لا يُفيقْ؟   يا له سَكْرانْ؟
من غيرِ خمرِ!   ما للكئيبِ المشوقْ   يَنْدبُ الأوطانْ؟
هل تُستعادْ   أيامُنا بالخليجْ،   ولياليناؕ؟
إذ يُستفادْ   من النسيم الأريجْ،   مِسْكُ دارِينا
وإذ يكادْ   حسنُ المكانِ البهيجْ   أن يحيينا؟
نهرٌ أظلَّه   دوحٌ عليه أنيقْ   مُورِقُ الأفنانْ
والماءُ يجري،   وعائمٌ وغريقْ   من جنى الرِّيحان
أو هل أديبْ   يُحيي لنا بالغُروسْ   ما كان أحلى
مع الحبيبْ،   وصافياتِ الكؤوسْ   فاسقني واملا
عيشٌ يطيبْ،   وَمنزَهٌ كالعروسْ   عندما تجلى
عيش لعلَّهْ   يعودُ منه فريقْ   كالذي قد كانْ
أضغاثُ فكر   تحدو به وتسوقْ   هذه الألحانْ

❀ ❀ ❀

يا صاحبيَّا   إلى متى تعذلاني!   أقصرا شيئاً!
قد متُّ حيًّا!   والمبتلى بالغواني   ميتٌ حيا!
جنى عليا   عذب اللمى والمعاني،   عاطرٌ ريا!
هلال كِلِّه،   غزال إنس يفوق   سائر الغزلان
يا ليت شعري   هل لي إليه طريق   أو إلى السلوان!

ابن هشام القرطبي

متنزّهات قرطبة

يا هبّةً باكرتْ منْ نحو دارين
وأنتْ إليّ على بُعد تُحيّيني

سرتْ على صفحات النهر ناشرة
جناحها بين خيريّ ونسرينِ

ردّتْ إلى جسدي روح الحياة وما
خلتُ النسيمَ إذا ما متُّ يُحييني

لولا تنسّمها من نشر أرضكُم
ما أصبحتْ من أليم الوجدِ تُبْريني

مرّت على عقدات الرمل حاملةً
من سرِّكم خبراً بالوحي يَشْفيني

عرفتُ من عَزفه ما لستُ أجهله
لمّا تنسّم في تلك الميادينِ

خلتُ الشمال شمولاً إذ سكرتُ بها
سكراً بما لستُ أجوه يُمَنّيني

أهدتْ إليّ أريجاً من شمائلكم
فقلت: قرّبني من كان يُقصيني

فظلتُ ألثُمُ من تعظيم حَقّكمُ
مجرّ أذيالها والوجد يُغريني

مسارح كم بها سرّحتُ من كمدٍ
قلبي وطَرْفي ولا سُلْوان يثنيني

بين المصلّى إلى وادي العقيق وما
يزال مثلَ اسمه مُذبان يُبكيني

إلى الرُّصافة فالمَرْجِ النضير فوادي
الدير فالعطف منْ بَطحاء عبدون

قطر فسيحٌ ونهر ما به كدَرٌ
حفّتْ بشَطَّيْه ألفاف البساتين

يا ليتَ لي عمرَ نوحٍ في إقامتها
وأنَّ ما ليَ فيه كنزُ قارون

كلاهما كنتُ أفنيه على نشوات
الراح نهْباً ووصْل الحور والعِيْنِ

وإنّما أسَفي أنّي أهيمُ بها
وأنّ حظيَ منها حظّ مغبون...

ابـــن خفّاجـــة

وصف الطبيعة

وكـمـامَـةٍ حَـدَرَ الـصـبـاحُ قـنـاعـهـا عـن صـفـحـةٍ تـنـدى مـن الأزهـارِ
فـي أبـطـحٍ رضـعـت ثـغـورُ أقـاحِـه أخـلافَ كـل غـمـامـةٍ مِـدْرار
نثرت بحجر الأرض فيه يد الصّبا دُررَ الـنـدى ودراهـمَ الـنـوّار
فحللتُ حيث الماء صفحة ضاحك جـذلٍ وحـيـث الـشـطُّ بـدء عِـذار
والـريـحُ تـنـفـضُ بُـكْـرَةً لـمـمَ الـرُّبـى والـطـلُّ يـنـضـح أوجـهَ الأشـجـار
مـتـقـسّـمُ الألـحـاظ بـيـن مـحـاسـنٍ مـن رِدْفِ رابـيـة وخـصـر قَـرار
وأراكـةٍ سـمِـعَ الـهـديـلُ بـفـرعـهـا والـصـبـحُ يَـسْـفِـرُ عـن جـبـيـن نـهـار
هـزّت لـه أعـطـافَـهـا ولـربـمـا خـلـعـت عـلـيـه مُـلاءةَ الأنـوار

❀ ❀ ❀

سـقـيـاً لـيـوم قـد أنـخـتُ بـسَـرْحـةٍ ريّـا تـلاعـبـهـا الـريـاحُ فـتـلـعـبُ
سـكـرى يُـغـنـيـهـا الـحـمـام فـتـنـثـنـي طـربـاً ويـسـقـيـهـا الـغـمـامُ فـتـشـرب
يـلـهـو فـتُـرفـعُ لـلـشـبـيـبـة رايـةٌ فـيـه، ويـطْـلـع لـلـبـهـارة كـوكـبُ
والـروضُ وجـهٌ أزهـرٌ والـظـل فـرعٌ أسـودُ والـمـاءُ ثـغـرٌ أشْـنـبُ
فـي حـيـثُ أطـربـنـا الـحـمـام عـشـيّـةً فـشـدا يُـغـنـيـنـا الـحـمـامُ الـمـطـربُ
واهـتـزّ عـطـفُ الـغـصـن مـن ذربٍ بـنـا وافـتـرَّ عـن ثـغـر الـهـلال الـمَـغْـربُ
فـكـأنـه والـحـسـنُ مـقـتـرنٌ بـه طـوقٌ عـلـى بُـرْد الـغـمـامـة مُـذْهَـبُ
فـي فِـتْـيـةٍ تـسـري فـيـنـصـدع الـدُّجـى عـنـهـا، وتـنـزل بـالـجـديـب فـيُـخـصـبُ
كَـرُمـوا فـلا غـيـثُ الـسـجـاحـة مُـخْـلـفٌ يـومـاً ولا يَـرْقُ الـلـطـافـة خُـلّـبُ
مـن كـل أَزْهَـرَ لـلـنـعـيـم بـوجْـهِـهِ مـاء يُـرَقـرقـه الـشـبـابُ فَـيَـسْـكُـبُ

ابن زيدون

ذكرى ولادة

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طَلْقٌ ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله ... كأنما رقَّ لي فاعتلَّ إشفاقا
والروض عن مائه الفِضيّ مبتسمٌ ... كما حللتَ عن اللبّاتِ أطواقا
يومٌ كأيام لذّاتٍ لنا انصرمتْ ... بتنا لها حين نام الدهرُ سُرّاقا
نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعيُنَه إذ عاينتْ أرَقي ... بكتْ لما بي فجال الدمع رقراقا
وردٌ تألّقَ في ضاحي منابته ... فازداد منه الضُحى في العين إشراقا
سرى يُنافحُهُ نَيْلوفَرٌ عَبِقٌ ... وَسْنانُ نبّه منه الصبحُ أحداقا
كلٌّ يهيج لنا ذكرى تشوّقنا ... إليك، لم يعْدُ عنها الصدر أن ضاقا
لو كان وفّى المُنى في جمعنا بكمُ ... لكان من أكرمِ الأيّام أخلاقا
لا سكّنَ الله قلباً عقَّ ذكركمُ ... فلم يطرْ بجناحِ الشوق خفّاقا
لو شاء حملي نسيمُ الريح حين هفا ... وافاكمُ بفتًى أضناه ما لاقى
يا علقِيَ الأخطرَ الأسنى الحبيبَ إلى ... نفسي إذا ما اقتنى الأحبابُ أعلاقا
كان التجاري بمحْضِ الودِّ مُذْ زَمَنٍ ... ميدانَ أُنْسٍ جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمدَ ما كنّا لعهدكمُ ... سلوتُمُ وبقينا نحن عشّاقا

المعتمد بن عباد

الأسريات

فيما مضَى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيدُ في أغمات مأسورا
ترى بناتِكَ في الأطمار جائعةً يغزلن للناس ما يملكن فِطْميراً
برزن نحوك للتسليم خاشعةً أبصارُهنّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأنَ في الطين والأقدام حافيةٌ كأنها لم تطأ مِسْكاً وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت مساءتُه فكانَ فِطرَك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمرْهُ ممتثلاً فردَّك الدهرُ منهياً ومأمورا

❀ ❀ ❀

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتندبه البيضُ الصوارمُ والقنا وينهلُّ دمعٌ بينهن غزير
مضى زمنٌ والملك مستأنسٌ به وأصبحَ منه اليومَ وهو نفوز
أذلَّ بني ماء السماء زمانهمْ وذلُّ بني ماءِ السماءِ كبير
فيا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً أمامي وخلفي روضةٌ وغدير
بمُنْبَتَّةِ الزيتون مورِثَة العُلا تغنّي حمامٌ أو ترنُّ طيور
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا تشيرُ الثريا نحونا ونشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعدٌ سعودُ، غَيورَين والصبُّ المحبُّ غيور
تراه عسيراً لا يسيراً منالُهُ ألا كل ما شاء الإلهُ يسيرُ

ابن مرج الكحل

وصف الطبيعة

عرّج بمنعَرَجِ الكثيبِ الأفَرِ بين الفرات وبين شَطّ الكَوْثرِ
ولْتَغْتَبِقْها قهوةً ذهبيّةً من راحتَيّ أخوى المراشف أَحْوَرِ
وعشيَّةٍ كم كنتُ أقربُ وقتَها سمحتْ بها الأيام بعد تعذّر
والوُرْقُ تشدو الأراكةُ تنثني والشمسُ ترفُلُ في قميص أصْفر
والروضُ بين مُفضَّضٍ ومذهَّبٍ والزهرُ بين مُدَرْهمٍ ومدنَّر
والنهر مرقومُ الأباطحِ والرُبى بمصنْدَلٍ من زهرهِ ومعصْفرِ
وكأنه وكأن خضرةَ شطهِ سيفٌ يُسلُّ على بساطٍ أخضر
نهرٌ يهيمُ بحسنهِ من لم يهِمْ ويجيدُ فيه الشعرَ من لم يشعر
ما اصفرَّ وجه الشمس عند غروبها إلا لفُرقةِ حسن ذاك المنظر

شمس الدين الكوفي

وصف الربيع

روح الزمان هو الربيع نبكِّرِ وانهضْ إلى اللذات غيرَ منكَّرِ
هذا الربيعُ يبيع من لذّاته أضافَ ما تهوى، فأين المُشتري
فافرحْ به فلفرحةٍ بقدومه رفلَ الشقائقُ في القباء الأحمر
والكون مبتهجٌ وخفّاقُ الصَّبا يحيي القلوبَ بنشره المتعطِّرِ
والغيمُ يبكي والأقاحي باسمٌ لبكائه كتبسُّمِ المستبشرِ
والسروُ إن عبثَ النسيم فهزّ أعطاف الغصون يميسُ ميسَ موقَّر
وكأنما المنصور في أثوابه ألوانُ ياقوتٍ أنيق المنظر
وترى البَهارَ كعاشقٍ متخوّف متشوّق بادٍ بوجْهِ أصفر
والطَلُّ من فوق الرياض كأنه دُرَرٌ نُثرنَ على بساطٍ أخضر
وترى الرُبى بالنُّور بين متوَّجٍ وَمُدَمْلَجٍ ومُخَلْخَلٍ ومزنَّر
والوُرْقُ بين مرجِّعٍ وموجِّعٍ ومفجِّعٍ ومسجِّع في منبر
ومغرِّدٍ ومردِّدٍ ومعدِّدٍ ومبدِّدٍ في الخدّ ماءَ المحجرِ

ابن زمرك

خمر وطبيعة

هبَّ النسيمُ على الرياض مع السحَرْ … فاستيقظتْ في الدَّوحِ أجفانُ الزَهَرْ
ورمى القضيب دراهماً من نَوْرِهِ … فاعتاضَ من طَلِّ الغَمام بها دُرَرْ
نثر الأزاهرَ بعدما نظم الندى … يا حُسْنَ ما نظم النسيمُ وما نَثَرْ
ثم هاتها والجو أزهَرُ باسمٌ … شمساً تحلُّ من الزجاجة في قمر
إن شجَّها بالماءِ كفُّ مديرها … ترميه من شهبِ الحباب بها شرز
ناريةٌ نوريةٌ من ضوئها … يقد السراج لنا إذا الليلُ اعتكر
لم يبق منها الدهرُ إلا صبغة … قد أَزعَشَتْ في الكأس من ضعف الكِبَرْ
من عهد كسرى لم يُفَضَّ ختامُها … إذ كان يَدْخَرُ كنزها فيما ادخر
كانت مُذابَ التبر فيما قد مضى … فأحالها ذوبَ اللجَين لمن نظر
محمرَّةً مصفرَّةً قد أظهرت … خَجلَ المريب يشوبه وجَلُ الحذر
من كفِّ شفَّافٍ تجسَّدَ نوره … من جوهرٍ لألاءِ بهجته بَهَرْ
تهوى البدورُ كما له وتودّ أن … لو أُوتيتْ منه المحاسنَ والغُرر
شُكْرُ الندامى من يديه ولحظهِ … متعاقبٌ مهما سقى وإذا نظر
حيث الهديل مع الهدير تناغيا … فالطير تنشد في الغصون بلا وتر
والغضْبُ مالت للعناق كأنها … وفدُ الأحبَّة قادمين من السفر
متلاعبانٌ في الحُليِّ ينوبُ في … وجناتهنَّ الوردُ حسناً عن خَفَرْ
والنرجسُ المطلولُ يرنو نحوها … بلواحظٍ دمعُ الندى منها انهمر
والنهر مصقولُ الحسام متى يرِدْ … درعُ الغدير مصفقاً فيه صدر
يجري على الحصباء وَهْيَ جواهر … متكسّراً من فوقها مهما عثر
هل هذه أم روضةُ البشرى التي … فيها لأرباب البصائر مُعتَبَرْ
لم أدر من شَغَفٍ بها وبهذه … منْ منهما فَتَنَ القلوبَ ومن سَحَرْ . . .

لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيث

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ همى ... يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلُما ... في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المنى ... يَنْقلُ الخطوَ على ما يرسُمُ
زُمَراً بين فُرادى وثُنا ... فثغور الزهر فيه تبسمُ
وروى النعمانُ عن ماء السما ... كيف يروي مالكٌ عن أنَسِ
فكساه الحسنُ ثوباً مُعْلَما ... يزدهي منه بأبهى ملبسِ
في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى ... بالدجى لولا شموسُ الغُرر
مال نجمُ الكأسِ فيها وهوى ... مستقيمَ السير سعْدَ الأثر
وطَرٌ ما فيه من عيبٍ سوى ... أنّهُ مَرَّ كلمحِ البصر
حين لذَّ الأنسُ شيئاً أو كما ... هجم الصبحُ هجومَ الحَرَسِ
غارتِ الشهبُ بنا أو ربما ... أثّرت فينا عيون النرجسِ
أيُّ شيءٍ لامرئٍ قد خلصا ... فيكون الروضُ قد مُكِّنَ فيه
تنهبُ الأزهارُ منه الفرصا ... أمنتْ من مكره ما تتّقيه
فإذا الماءُ تناجى والحصى ... وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه
تُبصرُ الوردَ غيوراً بَرِما ... يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما ... يَسْرقُ السَّمعَ بأُذْنَي فرس
يا أهيلَ الحَيِّ من وادي الغضا ... وبقلبي سَكَنٌ أنتم بهِ
ضاقَ عن وجدي بكم رحبُ الفضا ... لا أُبالي شَرْقَهُ من غربِهِ
فاعيدوا عهدَ أُنسٍ قد مضى ... تُعْتقوا عانِيَكُمْ من كربِهِ

أبو بكر بن عمّار

مدح المعتضد

أرِدِ المدامة فالنسيم قد انبرى   والنجمُ قد صرف العنان عن السُّرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره   لما استردَّ الليلُ منّا العنبرا
والرمض كالحَسْنا كساه زهرُه   وشياً وقلّده نداه جوهرا
روضٌ كأنَّ النهر فيه مِعْصمُ   صافٍ أصلٌ على رداء أخضرا
وتهزّه ريحُ الصبّا فتخاله   سيفَ ابن عبّاد يُبدّدُ عسكرا
ملكٌ إذا ازدحم الملوك بموردٍ   ونحاه لا يردون حتى يَصْدُرا
قدّاحُ زَنْدِ المجد لا ينفكّ من   نار الوغى إلا على نار القرى
لا خَلْق أقرأُ من شفار حُسامه   إن كنتَ شبّهت المواكب أسْطرا
أيقنتُ أني من ذراه بجنّة   لما سقاني من نداه الكوثرا
وعلمتُ حقاً أن رَبعي مُخْصِبٌ   لما سألْتُ به الغمامَ الممطرا
من لا توازنه الجبالُ إذا احْتَبى   من لا تسابقه الرياح إذا جرى
ملكٌ يروقك خَلْقُهُ أو خُلْقُه   كالرَّوْض يَحْسُنُ منظراً أو مخبراً
وجهلتُ معنى الجود حتى زرته   فقرأته في راحتيه مفسَّرا
يا أيها الملك الذي حاز العُلا   وحباه منه بمثل حمدي أنورا
السيف أفصحُ من زيادٍ خطبةً   في الحرب إن كانت يمينك منبرا
شقيَتْ بسيفكَ أمّةٌ لم تعتقد   إلا اليهودَ وإنْ تسمَّت بربرا
أثمرتَ رُمْحَكَ من رؤوس ملوكهم   لما رأيت الغصنَ يُعشق مثمرا
وصبغتَ درعَك من دماء كُماتِهِمْ   لما علمتَ الحسنَ يُلبس أحمرا
وإليكها كالروض زارته الصَّبا   وحنا عليه الطلُّ حتى نَوَّرا
فلئن وجدتَ نسيمَ مدحيَ عاطراً   فلقد وجدتُ نسيمَ برِّك أعطرا

أبو بكر بن اللبانة

مدح المعتمد

أنفض يديكَ من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقلْ لعالمها السُفليّ قد كتمتْ ... سريرةَ العالم العلويّ أغماتُ
طوتْ مظلّتُها لا بل مذلّتُها ... من لم تزلْ فوقه للعزّ رايات
من كان بين الندى والبأس أنصُلُه ... هِنْديّةُ وعطاياهُ هُنَيْداتُ
رماه من حيث لم تستره سابغةٌ ... دهرٌ مصيباتُهُ نَبْلٌ مصيبات
دَرَوْهُ ليثاً فخافوا منه عاديةً ... عذرْتُهُمْ، فلعَدْو الليث عاداتُ
لو كان يُفْرَجُ عنه بعضَ آونةٍ ... قامتْ بدعوته حتى الجمادات
لهفي على آلِ عبّادٍ فإنّهمُ ... أَهِلّةٌ ما لها في الأفقِ هالات
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة ... كانتْ لنا بُكَرٌ فيها وروحاتُ
أرضٌ كأنّ على أقطارِها سُرُجاً ... قد أوقدتهنَّ بالأدهانِ أنباتُ
كأنّ واديَها سلكٌ بِلَبَّتِها ... وغايةُ الحسن أسلاكٌ ولَبَّاتُ
نهرٌ شربْتُ بعَبْرَيْهِ على صُوَرٍ ... كانتْ لها فيّ قبل الراح سورات
وربما كنتُ أسمو للخليج به ... وفي الخليج لأهل الراح راحات . . .

ابن الأبار القضاعي

قصيدته إلى أبي زكريا ابن أبي حفص صاحب افريقيا

أدرِك بخيلِكَ خَيْلِ الله أندَلُسا إنَّ السبيلَ إلى منجاتها درسا
وهبْ لها من عزيز النصرِ ما التمستْ فلم يزل منكَ عزُّ النصر مُلْتَمَسا
يا للجزيرة أضحى أهلُها جزَراً للحادثاتِ وأمسى جدُّها تَعِسا
في كل شارقة إلمامُ بائقةٍ يعود مأتُمها عند العدى عُرُسا
مدائنُ حلَّها الإشراكُ مبتسماً جذلان، وارتحلَ الإيمان مبتئسا
محا محاسنها طاغٍ أُتيحَ لها ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا
صِلْ حَبْلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المِراسُ لها حبلاً ولا مرسا
وأَحْيِ ما طمست منها العُداةُ كما أحييت من دعوة المهديّ ما طمسا
أيامَ صرتَ لنصر الحق مستبقاً دبتَّ من نور ذاك الهدى مقتبسا
هذي رسائلها تدعوك عن كَثَبٍ وأنت أفضلُ مَرْجُوٍ لمن يئسا. . .
يا أيها الملك المنصور أنت لها علياءُ توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترتِ الأنباءُ أنك مَنْ يُحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهِّرْ بلادك منهم إنَّهم نجسٌ ولا طهارةَ ما لم تغسل النَّجسا
وأوطىء الفَيْلَقَ الجرّارَ أرضَهُم حتى يطاطىء رأساً كل من رأسا
فاملأ هنيئاً لك التأييدُ ساحتها جُرْداً سلاهبَ أو خَطِّيَّةً دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعَسَى

الفصل الثاني

عصر النهضة الفكرية

العوامل المؤثرة في عصر النهضة

تضافرت عوامل عديدة في تحقيق النهضة الفكريّة في الشرق العربي الذي كان يخضع للسيطرة العثمانيّة. وكان لبنان جزءاً من هذه المنطقة، وإن كان يختلف عن بقيّة المناطق العربيّة بتمتّعه بنوع من الاستقلال الذاتي في ظلّ المتصرفية. وكانت الأحداث التي تجري في إحدى تلك المناطق تؤثر بشكل أو بآخر على المناطق الأخرى، وعلى مختلف الصعد. ولعلّ الحملة العسكريّة التي قام بها نابليون بونابرت على مصر شكّلت الحافز الأهمّ لانطلاق النهضة الفكريّة في مختلف المناطق العربية وخصوصاً في لبنان ومصر.

وساهمت عوامل مختلفة في تحقيق هذه النهضة، أبرزها:

١ ـ **البيئة السياسيّة**: في ظلّ حكمهم الاستبدادي الذي فرضوه على المناطق العربيّة، سعى العثمانيون دائماً إلى الهيمنة على مختلف مظاهر الحريّة، وأهمّها حريّة التفكير والعمل السياسي. ونتيجة لذلك، طغى العنصر التركي على الوضع السياسي، وجُرّد العرب من حقوقهم السياسيّة شيئاً فشيئاً، ممّا استدعى تحرّكات على خطوط مختلفة سعياً إلى إصلاح الأمور قبل أن تزيد تفاقماً. وبرزت في هذا المجال أربعة اتجاهات:

ـ **الأوّل**: يدعو إلى جمع العرب تحت لواء الدولة العثمانيّة بعد وضع دستور جديد للبلاد يأخذ في الاعتبار حقوق المناطق العربيّة. وقد نجح هذا التيّار في دفع الدولة العثمانيّة إلى إصدار مراسيم إصلاحيّة تبعها دستور جديد وضعه والٍ عثماني يُدعى مدحت باشا الذي كان مصيره النفي على يد السلطان عبد الحميد الثاني، وتمّ تعليق العمل بدستور مدحت باشا.

ـ **الثاني**: تمثّل بتيّار عنصري تركي عمد بعد وصوله إلى الحكم، إلى حصر المراكز العليا في الدولة بالأتراك، ودعا إلى تتريك العرب وفرض اللغة

التركيّة عليهم كلغة رسميّة وحيدة، وحتى ترجمة القرآن إلى اللغة التركيّة.

هذا التيّار رفضه العرب وسعوا إلى مناوأته من خلال جمعيّات، بعضها يعمل في السرّ، طالبت بالحقوق العربيّة المسلوبة.

ـ **الثالث**: كان اتجاهاً قوميّاً عربيّاً تمثل في عدد من الجمعيّات التي تأسّست في الداخل والخارج. وكان من أبرزها «رابطة الوطن العربي»، و «العربية الفتاة». وقد ضمّت إحدى الجمعيّات في بيروت الأديبين إبراهيم اليازجي ويعقوب صرّوف.

ويمكن تلخيص أهداف التيّار الثالث بما يلي:

أ ـ تحقيق الاستقلال الكامل للبنان وسوريا.

ب ـ جعل اللغة العربيّة اللغة الرسميّة في المناطق العربيّة.

ج ـ إحقاق الحريّة في الفكر والمعتقد السياسي.

د ـ فتح أبواب العلم والثقافة أمام الجميع في المناطق العربيّة.

ـ **الرابع**: يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلاميّة في الدولة والتقيّد بجميع أحكامها.

إن هذه التيّارات الأربعة سيعمل كلّ منها بحسب الظروف التي توفّرت له، إلى أن تقع الحرب العالميّة الأولى، وينضمّ العثمانيون إليها، وينتهي بهم الأمر إلى الانسحاب من جميع المناطق العربيّة ودخول الحلفاء إلى بعضها. عندئذٍ، تغيّرت الاتجاهات السياسيّة مع تقاسم المنطقة بين الإنكليز والفرنسيّين.

٢ ـ **البيئة الاجتماعية**: خلال القرنين الأخيرين من الحكم العثماني (الثامن عشر والتاسع عشر)، كانت المناطق العربيّة تعيش المرحلة الأكثر تخلّفاً في تاريخها. ويمكن اختصار ذلك بما يلي:

ـ سيطرة الإقطاعيّة على النواحي السياسية والاجتماعيّة والدينيّة والمعيشيّة.

ـ تطبيق سياسة الحكم المطلق من خلال الوالي التركي الحاكم.

ـ ضرائب مرتفعة وعشوائيّة.

ـ سيطرة الفساد في مختلف مرافق الدولة ودوائرها الحكوميّة.

ـ احتقار المرأة وسلبها حقوقها وحريتها.

٣ ـ البيئة الاقتصادية: كانت الحياة الاقتصاديّة في مختلف المناطق العربيّة ما تزال في طور البدائيّة، وخصوصاً في مجال الزراعة التي كانت تعتمد على الوسائل القديمة التي لا تستثمر الأرض كما يجب، ممّا يعني مواسم زراعيّة غير كافية. وكان المزارعون يعتمدون على مورد رزق آخر يتمثّل في تربية الماشية والدواجن.

أما الصناعة فكانت بسيطة جدّاً وتعتمد على الحرف اليدويّة التي كان معظمها متوارثاً أباً عن جدّ، من دون أن تطرأ عليها أيّ تطويرات على قاعدة العلم أو استخدام الآلة لتحقيق إنتاج أفضل.

وأما التجارة فكانت القطاع الوحيد الذي يشهد بعض الازدهار. لكنها كانت تتأثّر سلباً بالأحداث الأمنيّة التي كانت تطرأ بين فترة وأخرى.

٤ ـ البيئة الفكرية: سبقت عصر النهضة مرحلة قاتمة عرفت بعصر الانحطاط. وعلى سبيل الحصر، كان الأدب قد فقد بريقه تماماً وأصبح مجرّد كلمات منمّقة مزخرفة لا روح فيها ولا فكرة جديدة تطرح موضوعاً معاصراً أو معاناة إنسانيّة تلمّ بفئة معيّنة من الناس، وكم من معاناة عاشها الناس خلال تلك المرحلة، وخصوصاً خلال القرن الثامن عشر وجزء كبير من القرن التاسع عشر.

إن معظم ما كان ينظم من الشعر في ذلك كان صاحبه يطلقه في مناسبة معيّنة مقابل أجر يتقاضاه، كمدح أمير أو والٍ أو شيخ أو رجل غنيّ ما، وقد تكون المناسبة عرساً أو مأتماً أو أيّ مناسبة من تلك التي تكثر عند الأغنياء. وكلّ ذلك كان يتمّ في غياب أيّ نقد بنّاء يهدف إلى الإصلاح. ولا غرو في ذلك، فغياب الناقد المثقّف لمصلحة الناقد الذي يجري وراء منفعة مادّية

معيّنة، أتاح لكلّ من صنّف نفسه، أو تصنّف، في فئة «شاعر»، أن يطلق لمخيّلته الكسيحة العنان ويروح يرصف الكلمات رصفاً مشبعاً بالتّزلف، وهو يظنّ نفسه مغموراً بعالم من الوحي غير متاح لسواه «. . . فلا مصابيح عندنا بل حباحب»، على حدّ تعبير ميخائيل نعيمة، أحد أركان عصر النهضة في بداية القرن العشرين.

نموذج رثائي من مرحلة ما قبل النهضة

هوى ذلك البدر المنير لقطره	فمن بعد في العليا لا تنظر البدرا
فأصبح هذا الكون عادم ملكه	وأصبحت الخلاّن لا تعرف الصبرا
فبالله نخ واندب هماماً مجدّلاً	وشهماً له في صعقه الآية الكبرى
أديباً خطيباً مصقعاً متأنقاً	يساقط من فيه اللآلىء والدُّرّا
فوا حرقتي من ذكر أوصافه التي	تثير شجوني والبرايا بها أدرى

أما المدارس فكان وجودها قليلاً جدّاً، ويقتصر على بعض الأديرة والجوامع وساحات القرى (تحت السنديانة). فالأميّة كانت متفشّية بين أفراد الشعب، وسعيد الحظ كان من أتيح له قراءة مقاطع مختلفة من الكتب المقدّسة، وكتابة اسمه وبعض العبارات الدارجة.

وإذا كانت المدارس قليلة، فإن المكتبات والكتب كانت شبه نادرة، والمكتبات الموجودة كان محتواها يقتصر على عدد قليل من المخطوطات. وقد امتدّت يد الجهل والظلم أكثر من مرّة لتنال من النتاج الفكري الموجود في هذه المكتبات. ففي عهد والي عكّا أحمد باشا الجزّار أُحرقت مجموعة من المخطوطات بعد إخراجها من مكتبة دير المخلّص قرب صيدا.

إن هذه العوامل، مجتمعة أو فرادى، ساهمت في انحطاط المستويين الفكري والثقافي في لبنان. فهموم الأمن والسياسة وتأمين لقمة العيش تضافرت لتصرف الإنسان اللبناني، فرداً ومجتمعاً، عن الاهتمام بالشؤون

الفكريّة والثقافيّة، وفرضت عليه أن يقف على مسافة بعيدة عن الحرف والكتاب والمدرسة.

فكان لا بدّ من خلق حوافز جدّية وأدوات فاعلة تدفع عن اللبناني، والعربي بشكل عام، ظلمة الجهل وترفع عنهما عبوديّة الأميّة. وهذه الحوافز والأدوات كان بدىء بالتحضير لها خلال عهود مختلفة وترعرعت بمعظمها خارج لبنان لتعود إليه حاملة مشعل العلم وحريّة المعرفة.

على الطريق

لم يعرف لبنان مرحلة من الاحتلال أصعب وأقسى من القرون الأربعة التي عاشها تحت وطأة الحكم العثماني، وذلك بسبب سياسة العزل التي اعتمدها العثمانيّون للتضييق على الحكم الوطني في لبنان وإدخاله تحت الحكم المباشر للباب العالي. وقد جعلوا حكم الولايات المحيطة بلبنان في أيدي ولاة عثمانيّين نفّذوا «بإخلاص» سياسة الدولة العليّة، وعملوا بقدر استطاعتهم على مضايقة الجبل خلال العهدين المعني والشهابي، إلى أن انتهى الأمر بوضع اليد العثمانية على لبنان وإدخاله تحت حكم الأستانة المباشر.

والضغوط التي مارسها العثمانيّون على لبنان شملت النواحي العسكريّة والاقتصاديّة. وسعوا إلى القضاء على الوعي الاجتماعي والمستوى الثقافي عبر أجواء عدم الاستقرار التي كانوا يشيعونها في الإمارة اللبنانيّة، على الصعيدين الأمني والاقتصادي.

ورغم ذلك، قيّض الله للبنانيّين أن ينعموا بمراحل مختلفة في الزمن من الاستقرار السياسي والأمني والاقتصادي، في عهود بعض الأمراء البارزين، ممّا ساعد في تنشيط الحركة الثقافيّة والعلميّة في البلاد، تلك الحركة التي ستشكّل أرضيّة مناسبة لنموّ نهضة فكريّة وطنيّة واجتماعيّة، في مرحلة لاحقة، سيكون لها دور أساسيّ في انطلاق عصر النهضة في مختلف المناطق العربيّة منذ أواخر القرن التاسع عشر.

مدرسة روما المارونيّة

في العام ١٥٧٧، تلقّى البطريرك الماروني مخايل الرزّي رسالة من قداسة الباب غريغوريوس الثالث عشر تتعلّق بإنشاء مدرسة خاصة للطلاب الموارنة في روما.

وفي عهد البطريرك الرزّي، دشّن البابا نفسه «مدرسة روما المارونيّة» سنة ١٥٨٤. وقبل إنشاء هذه المدرسة، كان الطلاب اللبنانيّون المتفوّقون في مدارس الإرساليّات يرسلون إلى المدرسة الشرقيّة في روما لمتابعة دروسهم.

وكانت مدرسة روما المارونيّة تعنى بتدريس اللاهوت، وقد بدأت باستقبال عشرين طالباً فقط.

وخرّجت هذه المدرسة عدداً مهمّاً من اللاّهوتيّين الذين انضووا في الإكليروس الماروني، وتسلّموا مراكز في الكنيسة المارونيّة، ودأبوا على ضمّها إلى الكرسي الرسولي، واختار بعض هؤلاء نشر حضارة المسيحيّين الشرقيّين في بعض أنحاء أوروبا، وخصوصاً في فرنسا التي كانت تربطها بالموارنة علاقات حسنة.

وكان من أبرز الطلاّب الذين تخرّجوا من «مدرسة روما المارونيّة» وعملوا في ترجمة الآداب والفلسفات الغربيّة، وعلّموا وخطّوا مؤلفات خاصّة ممهّدين للنهضة الفكريّة التي بدأت ملامحها في أواخر القرن التاسع عشر:

أوّلاً: العاملون في فرنسا

ـ جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ ـ ١٦٤٨): درّس اللغتين السريانيّة والعربيّة في روما، ثمّ انتقل إلى باريس حيث ترأس دائرة اللغات الساميّة في «الكليّة الملكيّة». ترجم التوراة إلى العربيّة والسريانيّة ولغات أخرى، كما ترجم كتباً أجنبيّة أخرى. وجمع قواعد اللغة العربيّة في كتاب يعتبر الأقدم في هذا المجال.

ـ حنّا الحصروني: ولد في حصرون. رافق زميله الصهيوني إلى باريس وعمل معه في «الكليّة الملكيّة» وساعده في ترجمة بعض الكتب إلى اللاتينيّة.

ـ إبراهيم الحاقلي: ولد في حاقل (قضاء جبيل). نال دكتوراه مزدوجة في الفلسفة واللاهوت. عاد إلى لبنان وأمضى فيه أربع سنوات كمستشار ومرسل للأمير المعني فخر الدين الثاني. انتقل إلى إيطاليا حيث درّس اللغات الشرقيّة في جامعة بيزا، ثمّ إلى باريس حيث خلف جبرائيل الصهيوني في «الكليّة الملكيّة». ترك نحواً من ٦٤ مؤلّفاً في مجالات مختلفة، أبرزها

الكتب التي تناولت الليتورجيا (خدمة القدّاس) ومؤلّف في قواعد اللغة السريانيّة.

ثانياً: العاملون في إيطاليا

ـ إسحق الشدراوي: عمل في تعليم اللغات الشرقيّة، وألّف سنة ١٦١٨ كتاباً في قواعد السريانيّة جعله مبسّطاً وفي متناول كلّ من يريد تعلّم اللغة. وفي العام ١٦٣٦، ألّف كتاباً آخر في قواعد السريانيّة للذين يعرفون اللغة. وأصبح مرجعاً في السريانيّة للمستشرقين ولمعاصريه من روّاد اللغة. علّم اللغتين العربيّة والسريانيّة في أكاديميّة ميلانو وأشرف على الجزء الشرقي من مكتبتها. ثم انتقل إلى فلورنسا فبيزا حيث علّم اللغات الشرقيّة. بعد ذلك عُيّن مطراناً على أبرشيّة طرابلس.

ـ نصر الله شلق: نال الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت. علّم اللغتين العربيّة والسريانيّة في سبينزا بين ١٦١٠ و ١٦٣١. وقام بالدور نفسه في مؤسّسة القديس بطرس في مونتوريو. ألّف قاموساً للغتين العربيّة واللاتينيّة ليستفيد منه طلاّبه في دراسة العربيّة وفهمها.

ـ يوسف السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨): ولد في طرابلس وسافر إلى روما وهو في الثانية عشرة من عمره، وبقي فيها حتى وفاته. اهتمّ بإجراء دراسات وأبحاث في اللغات الشرقيّة وخصوصاً السريانيّة والعبريّة والفارسيّة وغيرها، وأنتجت هذه الأبحاث مؤلّفاً دعاه «المكتبة الشرقيّة» لا يزال حتى اليوم مرجعاً في ما يتعلّق بتاريخ الكنيسة في الشرق. أدخل إلى مكتبة الفاتيكان عدداً مهمّاً من المخطوطات الشرقيّة (٤٠٠ مخطوط). عمل مؤرّخاً لدى ملك نابولي وصقليّة، وألّف كتاباً ضخماً في تاريخ مملكته. كتب مؤلّفات عديدة تناولت قواعد بعض اللغات الشرقيّة، التاريخ، اللاهوت، والحقوق.

ثالثاً: في إسبانيا والبرتغال

ـ ميخائيل الغزيري (١٧١٠ ـ ١٧٩١): ولد في طرابلس، انتقل إلى إسبانيا سنة ١٧٥٠ بعدما أنهى دروسه في روما، وأصبح ناظراً في المكتبة

الملكيّة. وبعد عامين، أصبح عضواً في الأكاديميّة الملكيّة للتاريخ بعدما عمل لفترة ترجماناً وأستاذاً للّغات الشرقيّة. كُلّف بوضع فهرسة للمخطوطات الشرقيّة الموجودة في المكتبة، فأنجز عمله في مجلّدين خلال عشر سنوات.

رابعاً: في لبنان

ـ جرجس عميرة: من الطلاّب القدامى في مدرسة روما المارونيّة. عاد إلى لبنان بعد إنهاء دراسته وتأليف كتاب في قواعد السريانيّة. وبعد انتخابه بطريركاً، أسهم في اعتماد التقويم اللاتيني للأعياد المسيحيّة وتطبيقه على الطقس الماروني.

ـ اسطفان الدويهي (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤): ولد في إهدن، وانضمّ إلى مدرسة روما المارونيّة في الحادية عشرة من عمره، وأمضى فيها أربعة عشر عاماً، حيث درس اللغات الإيطاليّة واللاتينيّة واليونانيّة والفلسفة. وبعد عودته إلى لبنان، انصرف إلى الكتابة والتأليف. وقد نشرت مؤلفاته بعد نحو قرنين على وفاته. أبرزها: «تاريخ الطائفة المارونيّة» (١٨٩٠)، ومقتطف من «تاريخ الأزمنة» (١٩٥٠). وفي العام ١٦٧٠، ارتقى إلى سدّة البطريركيّة المارونيّة، لكن عهده لم يكن هادئاً، واضطرّ مراراً، تحت وطأة الاضطهاد، للهرب من مقرّ البطريركيّة في دير مار قزحيا في قنوبين. وقد نقل عنه المطران يوسف الدبس قوله عن عهده أنه «ناله من البلاء وأصابه من الاضطهاد ما لا يمكن وصفه».

ـ جرمانوس فرحات (١٦٧٩ ـ ١٧٣٢): ولد في حلب (سوريّا) وتلقّى علومه في مدرستها المارونيّة التي أسّسها الأب طولاي، أحد الطلاب القدامى في مدرسة روما المارونيّة. تعلّم العربيّة والسريانيّة والإيطاليّة، ودرس الفلسفة واللاهوت. أسّس في مدرسته جمعيّة أدبيّة ومكتبة غنيّة بالمخطوطات الشرقيّة. ألّف عدداً من الكتب في اللاهوت والليتورجيا والفلسفة والأدب والتاريخ والشعر وغيرها. وهو يُعتبر من روّاد النهضة الأدبيّة العربيّة.

ومن الأسماء الأخرى البارزة التي تخرّج أصحابها من مدرسة روما المارونيّة، نذكر مرهج الباني، ابن أخ إبراهيم الحاقلي، يوسف لويس السمعاني، بطرس مبارك، أندراوس اسكندر، اسطفان السمعاني، وسركيس الرزّي.

أسهمت مدرسة روما المارونيّة بالأعلام الذين تخرّجوا منها في التحضير للنهضة الفكريّة العربيّة، وخصوصاً اللبنانيّة، من خلال الإنتاج الغزير والقيّم الذي تركه هؤلاء في مجال التأليف والترجمة، ممّا ساعد اللبنانيين على الاطّلاع على حضارة الغرب وأفكاره، والغرف منها، وإخراج اللغة والأدب العربيّين من القمقم الذي حبسهما فيه الانغلاق والعزلة اللذان فرضهما النظام العثماني لتجويع الإنسان إلى المعرفة والعلم.

عهد فخر الدين

لعب الأمير فخر الدين الثاني دوراً بارزاً في تحريك عجلة الحياة الثقافية في لبنان، وخصوصاً بعدما رجع إليه من غربته القسريّة في إيطاليا. فالاستقلال شبه التام الذي نعم به لبنان خلال عهده، ساعده على التطلّع نحو الغرب الأوروبيّ والتفاعل الحضاري معه عبر وجوه متعدّدة.

ففي العام ١٦١٠، دخلت أوّل مطبعة عرفها الشرق إلى لبنان، وكان مركزها في دير مار أنطونيوس قزحيّا في الشمال، وقد اعتمدت الحرف السّرياني.

وبنتيجة الاتفاقات التي عقدها فخر الدين مع فرنسا وإيطاليا، فتحت أمام اللبنانيّين أبواب مختلفة لتحصيل الثقافة والعلم، مستفيدين بذلك من الامتيازات التي كانت يتمتّع بها بعض الدول الأوروبيّة في لبنان، والتي منحها الباب العالي. يضاف إلى ذلك الدور الذي قامت به مدرسة روما المارونيّة في هذا المجال.

وقد شجّع الأمير المعني مجيء الإرساليّات الأجنبيّة إلى لبنان، وبالتحديد الإرساليّات الكاثوليكيّة. فجاء الآباء الكبّوشيون الذين أسّسوا في صيدا أوّل إرساليّة أجنبيّة مسيحيّة في لبنان. ثم أقاموا فروعاً أخرى في كلّ من بيروت وإهدن وطرابلس. وقام الكبّوشيون بمهمتين: فتح المدارس للبنانيّين وتوسيع انتشار الديانة المسيحيّة في لبنان.

بعد ذلك، جاء الآباء الفرنسيسكان وأسّسوا أوّل مركز لهم في بلدة إهدن. ومع هاتين الإرساليّتين، بدأ انتشار اللغات الأجنبيّة في صفوف عامّة

الناس وانفتحت أمام اللبّنانيّين مجالات التعرّف إلى الآداب الأجنبيّة والتفاعل حضاريًّا مع المبادىء الإنسانيّة السائدة في أوروبا، والتي كانت تدعو إلى تحقيق العدل والحريّة والكرامة بين الناس.

عهد بشير الثاني

تابع الأمير الشهابيّ سياسة أسلافه في مجال تشجيع الثقافة والعلم في منطقة الجبل والمناطق التي كان يضمّها إلى إمارته في الفترات التي كان فيها سيف التّسلط مرفوعاً عن رأسه. فتابعت الإرساليّات الأجنبيّة مجيئها إلى لبنان وتأسيس أديرة ومدارس لها في مختلف المناطق. وكان أبرزها وصول أوّل مرسل أميركي إلى بيروت سنة ١٨٢٣، موفداً من قبل مجمع الإرساليّات الأميركي. وكان يدعى بلّيني فسك. وقد بقي في لبنان حيث أسّس أوّل إرساليّة أميركيّة فيه، ودفن في مدفن الإرساليّة بعدما أدركه الموت باكراً.

... وكانت النهضة الأدبيّة التي نشأت في لبنان عند مطلع القرن التاسع عشر عاملاً في تعزيز اسم «جبل لبنان» وإضفاء معنى جديد عليه. فأعطاه الشعراء الذين كانوا في بلاط الأمير بشير الثاني محتوى عاطفيًّا ووطنيًّا يشير إلى تباشير الوعي الوطني عند اللبنانيّين. ومن ذلك أن ناصيف اليازجي في قصيدة له، دعا الأمير بشير بطور لبنان العظيم وشخصه. كما أنه في قصيدة أخرى أثنى على الأمير للمكانة التي احتلها لبنان في عهده، فقال:

ألبست لبنان الضياء كأنما   جبريل فوق الطور منه نداءُ

أما نقولا الترك، وهو شاعر آخر من شعراء الأمير، فإنه شارك اليازجي إشارته إلى الأمير كدعامة لبنان، وقال في مدحه عند عودته منتصراً من إحدى المعارك في ١٨١٠:

هو السيد البشير الفتى الذي   هو الركن فيه طود لبنان يعمر

وتابع فقال في قصيدته:

وشرّف أوطاناً به طاب عيشها   وأنشأ لها شأناً إلى الدهر يدخر

التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث - إيليا حريق (ص ٢٨).

ثمّ نقل الأميركيّون مطبعتهم التي أسّسوها في مالطة إلى لبنان سنة ١٨٣٤، وكانت تطبع مؤلفات أو مخطوطات باللغة العربيّة.

وعلى صعيد المبادرات المحليّة، تأسّس في عهد الأمير بشير الثاني عدد من المدارس التي أسهمت في نشر العلم والثقافة بين اللبنانيّين. وتحوّلت مدرسة عين ورقة التي كانت تدرّس اللاهوت إلى معهد على الطراز الأوروبي. وقد تخرّج منها عدد من المفكّرين، أبرزهم: المطران يوسف الدبس (١٨٣٣ - ١٩٠٧) الذين أصدر عدداً من المؤلّفات التي تناولت تاريخ لبنان والمنطقة (تاريخ سوريّة الديني والدنيوي)، والمعلّم بطرس البستاني ورشيد الدحداح. وهذان الأخيران كانا من المقرّبين إلى الأمير الشهابي.

وبعدما توطّدت علاقات الأمير بشير بالمصريّين، أرسل عدداً من الطلاّب اللبنانيّين إلى مصر ليدرسوا الطبّ في القصر العيني الذي أسّسه محمد علي على النمط الأوروبي.

وعندما دخل الجيش المصري إلى لبنان بقيادة إبراهيم باشا، أبقى القائد المصري على حريّة عمل الإرساليّات الأجنبيّة ضمن نطاق التعليم. فاستمرّ توافد هذه الإرساليات، بحيث لم تعد تقتصر على الكاثوليكيّة الآتية من إيطاليا وفرنسا، وإنّما جاءت إلى لبنان إرساليّات بروتستانتية من ألمانيا وإنكلترا والولايات المتحدة الأميركيّة، وأورثوذكسيّة من روسيّا. وأدّى التنافس بينها إلى فوائد جمّة كانت لمصلحة اللبنانيّين.

عهد القائمقاميتين

بعد نهاية الإمارة الشهابيّة، عاش لبنان فترة قاسية من الأحداث الدامية التي كانت سبباً في شلّ النشاط الثقافي في مختلف المناطق إلى حدّ بعيد، واستمرّ ذلك حتى بداية عهد المتصرفيّة. ولم تسجّل تلك الفترة سوى إنجازات قليلة، أهمها:

- معهد اللاهوت اليسوعي في غزير (١٨٤٦).
- مدارس داخليّة وخارجيّة بدأت بإنشائها راهبات القديس يوسف ابتداء

من سنة ١٨٤٦ في عدد من المناطق، وخصوصاً في بيروت وصيدا وصور وحمانا.
مطبعة القديس جاورجيوس (١٨٤٧).
المطبعة الكاثوليكيّة (١٨٤٧).
مدرسة عبيه (١٨٤٨).
مطبعة عربيّة في دير طاميس في كسروان (١٨٥٥)، حيث تأسّست في مطلع القرن التاسع عشر مطبعة سريانيّة.

عهد المتصرفيّة

مع بداية عهد المتصرّفية، وعودة الهدوء والأمن إلى البلاد بشكل مقبول، عادت الحركة الثقافيّة لتنشط بشكل أكثر كثافة، حيث كان للمتصرّفين دور بارز في نشر العلوم والآداب وتشجيع فتح المدارس الخاصّة، من وطنيّة وأجنبيّة، وإنشاء المطابع لنشر الكتب والصحف والمجلاّت.

وفي الوقت نفسه، استمرّ توافد الإرساليّات الأجنبيّة، وأولاها كانت الإرساليّة الإنكليزيّة ـ السوريّة التي جاءت إلى لبنان سنة ١٨٦٠ وأسّست مدارس عديدة توزّعت في بيروت وبعلبك وزحلة وشملان وعين زحلتا وغيرها.

وفي العام ١٨٦٦، تأسّست الجامعة الأميركيّة في بيروت، وعُرفت في البداية باسم الكليّة السوريّة الإنجيليّة. وفي العام نفسه، أسّس الأميركيّون مدارس في سوق الغرب وعبيه وطرابلس وصيدا وحاصبيّا.

وكان الأوروبيّون يواظبون على تأسيس المراكز التربويّة في لبنان، وقد أسّس الفرنسيّون سنة ١٨٧٥، جامعة القديس يوسف في بيروت، أو الجامعة اليسوعيّة. وهي نفسها معهد اللاهوت اليسوعي الذي كان مركزه في غزير، فتمّ نقله إلى بيروت التي كانت حينئذٍ خارج حدود المتصرّفيّة.

ويبدو أن هذا التهافت الأجنبي على لبنان قد أثار همّة العثمانيّين، أو غيرتهم، فأمروا بفتح عدد من المدارس «السلطانيّة» في كلّ من بيروت وطرابلس وصيدا.

وفي عهد المتصرّفيّة، نشط العمل في مجال الصحافة، فأنشأ خليل الخوري صحيفة «حديقة الأخبار» سنة ١٨٥٨، ثم صدرت مجلّة «الجنان» للمعلّم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠. وفي السنة نفسها، أصدر الآباء اليسوعيّون جريدة «البشير». وصدرت «لسان الحال» لخليل سركيس سنة ١٨٧٧، و«بيروت» لمحمد رشيد الدّنا سنة ١٨٨٦.

ولمّا بدأت السياسة تتدخّل في حريّة العمل الصحافي، اضطرّ البعض إلى أن يقصد مصر حيث كانت الصحافة تتمتّع بحرّية أكبر. فأسّس كلّ من سليم وبشارة تقلا صحيفة «الأهرام» سنة ١٨٧٥، وهي لا تزال حتى اليوم من أهم الصحف المصريّة، وأصدر فارس نمر ويعقوب صرّوف «المقتطف» سنة ١٨٧٦، ثم «المقطم» سنة ١٨٨٨، وجرجي زيدان صحيفة «الهلال» سنة ١٨٩٢، وإبراهيم اليازجي «الضياء» سنة ١٨٩٩.

وقد ساهمت هذه الحركة الصحافيّة الناشطة في نشر الأدب والشعر والثقافة وتوعية الحسّ الوطني والعمل على نبذ الأحقاد والتمسّك بالحريّة والعدالة، بالإضافة إلى الاهتمام بشؤون اللغة العربيّة وترسيخ قواعدها، وبعث روح جديدة فيها تأخذ في عين الاعتبار الاختراعات الحديثة الكثيرة والمفردات التي يجب إدخالها على اللغة، والمفردات التي يجب التخلي عنها بعدما فاتها الزمن.

المدارس الوطنيّة

إن النجاح الذي حقّقته مدارس الإرساليّات الأجنبيّة على صعيد التعليم والتثقيف، دفع باللبنانيّين إلى إنشاء مدارسهم الوطنيّة الخاصة. وانتشرت المدارس في مختلف المناطق في ظلّ تنافس إيجابي بين مختلف الطوائف. وبعض هذه المدارس لا يزال قائماً حتى اليوم.

ومن أبرز المدارس التي ولدت خلال القرن التاسع عشر:

- مدارس في بكفيّا ومحيطها أسّستها رهبنة وطنيّة معروفة بجمعيّة المريميات، ابتداءً من العام ١٨٥٣.

... حمل الإكليروس معظم عبء التعليم، فهو الذي أنشأ المدارس، باستثناء ١٧ مدرسة أنشأتها الرهبانية اللبنانيّة البلدية وست مدارس أنشأتها الرهبانية اللبنانيّة الحلبية. وكانت أهم المدارس، أمثال عين ورقة ومار عبدا هرهرية ورومية وريفون تحت رقابة البطريرك المباشرة.

وكان الإكليروس يتلقى المساعدة في نشاطه التعليمي من بعض أبناء الطبقة الأرستقراطيّة وذلك بمنحه أحياناً قطعاً من الأرض. غير أن المساعدة الأوفر جاءت من القرويين أنفسهم. فكانوا يدعون الإكليريكيين، ولا سيما الرهبانية اللبنانيّة، لفتح المدارس في قراهم ويتبرعون بالممتلكات التي غالباً ما كانت تكفي لإعالة معلّم تقدمه الرهبنة لقاء هذه الممتلكات. وإضافة إلى ذلك، كان معظم رجال الدين يهبون أملاكهم لصالح المدارس أو لفتح مدارس جديدة، كما يتضح من الوثائق التي تعود إلى تلك الفترة.

وباستثناء بعض المدارس الرئيسيّة، كانت المدارس كلها تعنى بتعليم الكتابة والقراءة والحساب والمبادىء الدينيّة بطريقة السؤال والجواب. وفي عين ورقة، ومار عبدا ورومية، وكفرحي وكفيفان جرى تعليم مختلف الموضوعات، من فن كتابة الخط إلى الأدب والمنطق والفلسفة واللاهوت واللغات الشرقية والأوروبيّة. على أن مجال العمل لم يكن فسيحاً أمام دارسي هذه الموضوعات إلا في سلك الكهنوت الذي أفاد من دراستهم العالية هذه. لذلك نجد أن معظم أحبار الكنيسة الذين لعبوا دوراً مهماً في حياة لبنان السياسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر هم من خريجي المدرسة المارونيّة في روما، أمثال البطريرك تيان، أو من عين ورقة.

التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث - إيليا حريق (ص ١٢٠ - ١٢١).

- المدرسة الوطنيّة للمعلّم بطرس البستاني، سنة ١٨٦٣.
- مدرسة البطريركيّة، سنة ١٨٦٥.
- مدرسة «الثلاثة أقمار» للبنات، سنة ١٨٧٠.
- مدرسة الحكمة التي أسّسها مطران بيروت للموارنة يوسف الدّبس سنة ١٨٧٤.

مدرسة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، سنة ١٨٨٠.

«الكليّة الشرقيّة» في زحلة، سنة ١٨٩٨.

وقد درّست هذه المدارس، إلى جانب اللغة العربيّة، اللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة. وخرّجت عدداً كبيراً من المفكّرين والأدباء والشعراء، وغيرهم ممّن برعوا في مجالات الطب والهندسة والمحاماة وغيرها.

الجمعيّات

إلى جانب المدارس، تأسّس عدد من الجمعيّات التي اهتمّت بالأدب والعلوم، ومن أبرزها «جمعية الآداب والعلوم» سنة ١٨٤٧. وقد أُعيد تنظيمها بعد فترة واعترفت بها السلطات تحت تسمية «الجمعيّة العلميّة السوريّة» سنة ١٨٦٨. وكان من أبرز أعضائها المعلّم بطرس البستاني، حسين بيهم، ناصيف اليازجي، محمد أمين أرسلان وغيرهم. وأصدرت هذه الجمعيّة مجلّة شهريّة سُمّيت «مجموعة العلوم»، وقد اهتمّت بنشر المواضيع التي تتناول الأدب والعلوم المختلفة والشؤون الاقتصاديّة وغيرها.

وفي العام١٨٥٠، أسّس الآباء اليسوعيّون «الجمعيّة الشرقيّة».

المكتبات

قبل فتح الجامعات في لبنان، لم تكن فيه مكتبات؛ لأنه في غياب المطابع، لم تكن هناك كتب متوفرة سوى المخطوطات، وتلك كانت أسعارها مرتفعة ممّا أبعدها عن أن تكون في متناول الجميع. وكانت هذه المخطوطات محصورة في الأديرة والجوامع.

وعند افتتاح الجامعة الأميركيّة وجامعة القديس يوسف في بيروت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أقامت كلّ واحدة منهما مكتبة مهمّة لطلاّبها، ضمّت كتباً أجنبيّة ومخطوطات شرقيّة. ثم نشأت دار الكتب الوطنيّة.

وكانت المكتبات تحرص على ثروتها من الكتب وتحافظ عليها خوفاً من التّلف أو أيدي اللصوص. ويقول فيليب حتي في «تاريخ لبنان»: «ويبدو

لك حرصهم على صيانتها من اللعنات التي يصبّونها على من تخوّله نفسه سرقتها. ولا يستنكفون أن يدوّنوا هذه اللعنات على الصفحة الأولى من الكتاب أو على جلدته من الداخل».

أمّا الكتب التي كان يمكن شراؤها من السوق، فقد كانت موجودة في عدد محدود جدًّا من المكتبات، وكانت مخطوطات يقتصر مضمونها على مواضيع دينيّة وتاريخيّة ولغويّة، بالإضافة إلى أقاصيص وأساطير عن بعض الشخصيّات التاريخيّة. وفي المقابل، لم تكن الكتب الأجنبيّة موجودة بأعداد مقبولة، وإذا وجدت ترجمات لها، فإنها لم تبلغ المستوى المطلوب من الدّقة والأمانة في النقل إلى اللغة العربيّة.

هذه الأمور كلّها بدأت تتغيّر منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث كثرت المطابع والمكتبات العامة ومحلاّت بيع الكتب. وأصبحت المعرفة أكثر توفّراً من ذي قبل.

> جاء في الوصيّة التي تركها المطران جرمانوس فرحات، والتي وقف بموجبها كتبه على مكتبة مار الياس: «من أخذ كتاباً من هذه المكتبة ولم يرجعه، فليكن محروماً مسخوطاً عليه مرذولاً من الله ومن حقارتنا، وليكن مقطوعاً من جسد الكنيسة المارونيّة، ويكون بيته مثل صادوم وعامورة ويذهب رزقه وينهدم بيته ويشحذ أولاده من أبواب الخلائق...».

الترجمة

بعد اطّلاع العاملين في النظام الفكري والثقافي على النتاج الغربي من الأدب والشعر بوجوههما المختلفة، عرفوا الفرق الشاسع الذي يبعد بين نتاج الفكر في الغرب الأوروبي والأميركي وبين العقم الذي كانت تعيش فيه مخيّلة الفكر الشرقي العربي وأحلامه وطموحاته. عرفوا أن المقارنة بين الإثنين كالمقارنة بين عملاق وقزم.

لقد كان الشرق العربي منغلقاً على ذاته، بعيداً عمّا تخطّه الأيادي

البيضاء من أفكار ومشاعر إنسانيّة نبيلة، وذلك بسبب القيود التي فرضتها يد الاحتلال العثماني والظروف التي كان يعيشها الإنسان في لبنان ومحيطه ضمن إطارها والتي كانت تمنعه من الاتصال بالعلم ومعرفة ما يجري فيه.

ولمّا كان معظم الناس غير مهيّئين لاستيعاب اللغات الأجنبيّة، كالفرنسيّة والإنكليزيّة، وجد المهتمّون بهذا الموضوع ضرورة ترجمة الروائع العربيّة، من شعر ونثر إلى اللغة العربيّة ليستطيع الإنسان العربي أن يطّلع على هذه الأعمال ويسبر أغوارها، ويحرّر بالتالي فكره ومخيّلته من القيود القاسية التي كانت تكبّلهما وتمنعهما من الانطلاق إلى ما تصبو إليه روحه من معرفة الحقّ والخير والجمال.

وقد نشأت على هذا الأساس حركة ترجمة واسعة في لبنان ومصر، وحتى في أوروبا وأميركا. وكان معظم العاملين في هذا المجال من اللبنانيّين. والمواضيع التي كانت تترجم إلى العربيّة شملت الأدب والشعر والقصّة والمسرح، وحتى بعض المواد التي كانت تدرّس في الجامعات كالهندسة والطب والعلوم.

ولقد لعبت صحيفة «المقتطف» لصاحبيها يعقوب صرّوف وفارس نمر دوراً بارزاً في تعميم المواضيع المترجمة ذات الاتجاهات الأدبيّة والعلميّة المختلفة. وقامت مجلّة «الراوي» لصاحبها طانيوس عبدو بترجمة العديد من القصص.

ونقلت إلى العربيّة أعمال كثيرة للإنكليزي وليم شكسبير والفرنسي موليير. وبرز الأديب سليمان البستاني في تعريب «ألياذة» هوميروس وتعريف العالم العربي على فنّ الملحمة.

وأدخل مارون النقاش فنّ المسرح الذي تعرّف عليه في إيطاليا وفرنسا.

ولعبت الحركات والجمعيّات الفكريّة والثقافيّة في خارج لبنان دوراً مهمّاً في تشجيع الترجمة وتطبيقها فعلياً. وأبرز العاملين في هذا النطاق كانت «الرابطة القلميّة».

إن الإنجاز الذي حقّقته الترجمة في النهضة الفكريّة العربيّة، وخصوصاً

اللبنانيّة، تمثّل في تحرير الإنسان من الأفكار والأنماط والأساليب المتحجّرة البالية وجعله ينظر إلى الأدب والشعر كعاملين يعبّران عن المشاعر الإنسانيّة بمختلف تيّاراتها الوطنيّة والعاطفيّة والتأمليّة والوجدانيّة وغيرها. فخرج الأدب العربي من سجن التقليد، وبرز إلى العالم طفلاً سليماً وجميلاً، لكنه يحتاج إلى رعاية تامّة ومتواصلة لكي ينمو كما يجب ويخرج إلى العالم قويّاً جديداً، ويلعب دوره في المجال الإنساني كاملاً ومتساوياً مع أدوار الآخرين.

... نحن في دور من رقيّنا الأدبي والاجتماعي قد تنبّهت فيه حاجات روحيّة كثيرة لم نكن نشعر بها من قبل احتكاكنا الحديث بالغرب. وليس عندنا من الأقلام والأدمغة ما يفي بسدّ هذه الحاجات. فلنترجم! ولنجلّ مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشريّة العظمى، ولأنه بكشفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترها عنّا غوامض اللغة، يرفعنا من محيط صغير محدود، نتمرّغ في حمأته، إلى محيط نرى منه العالم الأوسع، فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وأفراحه وأحزانه.

فلنترجم.

ـ ميخائيل نعيمه ـ الغربال (ص ١٢٦).

الاستشـراق

المستشرقون هم مفكّرون غربيّون درسوا اللغات الشرقيّة، وخصوصاً العربيّة، واهتمّوا بآداب الشرق ولغات دياناته وتقاليده... وقد نشط عمل هؤلاء خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقاموا بأعمال متعدّدة ساهمت بفعاليّة في النهضة الفكريّة في لبنان والمناطق العربيّة. وكانوا في معظمهم من الأوروبيّين، وخصوصاً الألمان والفرنسيّين والإنكليز. وأبرزهم من الألمان: وستنفيلد، فيشر، وفون كريمر. ومن الفرنسيّين: كاترمايو ودي سلان ودي ساسي. ومن الإنكليز: نيكلسون ولان وبالمر. وأهمّ ما قام به هؤلاء يمكن تلخيصه على الشكل التالي:

جمع المخطوطات وتنظيمها في كتب مطبوعة، مبوّبة ومفهرسة.

تنظيم العديد من الكتب والمخطوطات باللغة العربيّة في مكتبات.

ترجمة العديد من الكتب العربيّة إلى لغات أجنبيّة مختلفة بهدف إطلاع الغرب على التراث الفكري والأدبي في الشرق العربي.

وضع «دائرة المعارف الإسلاميّة» التي تضمّ في صفحاتها موضوعات إسلاميّة مختلفة، في الأدب والفلسفة والتاريخ والعلوم وغيرها.

المسـرح

بدأ المسرح فعليًا مع مارون النقاش، اللبناني الجنوبي، في أواسط القرن التاسع عشر، حين بدأ بتقديم عدد من المسرحيّات الغربيّة المترجمة إلى اللغة العربيّة ومسرحيّات أخرى من تأليفه.

في المرحلة الأولى، كان يقدّم هذه الأعمال في ساحة منزله، ثمّ انتقل في المرحلة التالية إلى مصر التي كانت تشهد تطوّراً في فن التمثيل والتي كانت تملك قدرات تخوّلها إقامة المسارح الكبيرة.

وقد أدّى ازدهار الحركة المسرحيّة إلى توجّه كتّاب من لبنان والعالم العربي إلى تأليف أعمال مسرحيّة من واقع الحياة الشرقيّة لكي تؤدّى على المسرح حيث الاتّصال المباشر والأفضل مع الجمهور، خصوصاً إذا كانت هذه المسرحيّات تطرح معاناة الإنسان العربي وهمومه ومشاكله.

أبرز أعلام عصر النهضة

قامت النهضة الفكريّة في الشرق العربي على أكتاف عدد قليل من الأدباء والشعراء والنقّاد في لبنان والعالم العربي. وكان للبنان في هذا المجال دور بارز أدّاه عدد من أبنائه في الداخل، وفي بعض الدول العربيّة، وفي المهجر. وكان المهجر الركن الأهمّ الذي نشط فيه اللبنانيّون حيث قدّموا الوجه الأفضل الذي أطلّت به النهضة الفكريّة في لبنان ومحيطه.

في لبنان

عمل عدد من أصحاب الأقلام المحليّين من خلال تفاعلهم مع الحركة الثقافيّة التي عمّت معظم أرجاء لبنان، على تحريك الوضع الفكري في الداخل، وبثّ روح عصريّة جديدة، وقدّموا نتاجاً فكريّاً، في النثر والشعر والترجمة، كان له تأثيره في تحوّل مسار الأساليب الكتابيّة نحو التفاعل مع تطلّعات العصر ومواجهة مصاعبه والغرف من إنتاج الغرب الذي كان يعيش عصره الذّهبي. ومن أبرز روّاد النهضة الفكريّة ممّن عملوا في لبنان:

ـ المعلّم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣): ولد في الدبّية وتلقّى علومه في مدرسة عين ورقة. ثمّ درس اللّغتين اليونانيّة والعبريّة، وساعده ذلك في تعريب التوراة عن العبريّة والإنجيل المقدّس عن اليونانيّة، وفي العمل كترجمان في القنصليّة الأميركيّة في بيروت. أسّس «المدرسة الوطنيّة» في عبيه، وعمل في الصحافة، فأسّس «نفير سوريّة» سنة ١٨٦٠، ثم الصحيفة الأسبوعيّة «الجنّة» سنة ١٨٧٠، ثم مجلّة نصف شهريّة سمّاها «الجنان». وفي العام ١٨٧١ أصدر «الجنينة».

يعتبر البستاني من أبرز كتّاب عصره، علماً وإنتاجاً. فبالإضافة إلى المواضيع التي كان يكتبها لصحفه ومجلاّته، أصدر بعض المؤلّفات المهمّة،

أبرزها «دائرة المعارف» ومعجم «محيط المحيط» في مجلّدين. وصدر قبله مصغّر عنه سمّاه «قطر المحيط». أمّا «دائرة المعارف» التي أصدر منها ستة أجزاء في حياته، فقد وسّعها نجله سليم ونسيبه سليمان البستاني وأضافا عليها خمسة مجلّدات أخرى. وألّف البستاني عدداً من الكتب المدرسيّة في اللغة والرياضيّات وبدأ بترجمة «الموسوعة الإسلاميّة» إلى اللغة العربيّة. لكنه لم يتمكّن من إتمامها.

ـ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١): من كفرشيما. بدأ حياته العمليّة كاتباً في بلاط الأمير بشير الثاني الشهابي حتى نهاية عهده سنة ١٨٤٠. ثمّ انتقل إلى بيروت. جمع بين كتابة النثر والشعر، بالإضافة إلى تضلّعه في اللغة العربيّة. من آثار الكتابيّة «فصل الخطاب في أصول لغة الإعراب» (١٨٣٦)، «مجمع البحرين» (١٨٥٦)، وبدأ بشرح ديوان أبي الطيّب المتنبّي، لكنه توفّي قبل إتمامه فأنجزه ابنه إبراهيم سنة ١٨٨٢ وصدر تحت عنوان «العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب». ولناصيف اليازجي أيضاً كتب مدرسيّة مختلفة في الأدب واللغة والقواعد.

ـ إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦): بدأ حياته معلّماً في «المدرسة البطريركيّة» في بيروت، ثمّ قام بتصحيح الترجمة العربيّة للتوراة بتكليف من الآباء اليسوعيّين. بعد ذلك، عمل في الصحافة ونشر أعمالاً رفيعة المستوى في الأدب واللغة.

ـ يوسف الأسير (١٨١٥ ـ ١٨٨٩): ولد في صيدا ودرس في الأزهر. شغل في بداية حياته مركز قاض في طرابلس، ثمّ عُيّن في عكّا. وفي عهد المتصرّفية، عيّنه داود باشا نائباً عامّاً. درّس اللغة العربيّة في اسطنبول فالمدرسة البطريركيّة في بيروت، ثمّ في الكليّة السوريّة الإنجيليّة. عمل في الصحافة، فأصدر صحيفة «ثمرات الفنون» سنة ١٨٧٥.

ـ الأب لويس شيخو (١٨٥٩ ـ ١٩٢٨): تلقّى علومه في لبنان، ثمّ في أوروبا. وعاد بعد ذلك إلى بيروت حيث درّس اللغة العربيّة في جامعة القديس يوسف. عمل محرّراً في مجلّتي «المشرق» و «اليسوعيّة». والأخيرة كانت تُعنى بالأدب والعلوم والتاريخ وغيرها. كتب في الأدب والتاريخ عدداً

وافراً من المؤلّفات. أبرزها «مجاني الأدب في حدائق العرب» و «بيروت، تاريخها وآثارها» و «شعراء النصرانيّة قبل الإسلام» وغيرها.

ـ يعقوب صرّوف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧): وُلد في بلدة الحدث (بيروت) وتوفّي في القاهرة. درس في «الكليّة السوريّة الإنجيليّة» (الجامعة الأميركيّة)، وأتقن اللغتين العربية والإنكليزيّة مع بعض الإلمام باليونانيّة والفرنسيّة. أبدى ميلاً إلى العلوم والفلسفة، وعدما أنهى دروسه، عمل أستاذاً في العلوم الطبيعيّة والكيميائيّة لفترة طويلة، ثم أسّس مجلّة «المقتطف» مع فارس نمر سنة ١٨٦٧ في بيروت، ونقلاها بعد فترة إلى مصر حيث أصدرا أيضاً صحيفة «المقطم». وقد اهتمّت «المقتطف» بنشر مواضيع فنّية وعلميّة. ويقول صرّوف ونمر عن الحوافز التي دفعتهما إلى إصدار «المقتطف»: «كنّا نأسف لأنّ لغتنا العربيّة خالية من جريدة تبسط فيها العلوم والفنون بسطاً يقرّبها من أفهام القرّاء، وتنشر فيها خلاصة المكتشفات الجديدة، والتحقيقات المفيدة، شهراً بعد شهر، حتى يبقى أبناء المشرق جارين مع العلم في سيره الحثيث. وكان أصدقاؤنا الذين يعرفون وسائطنا يحثّوننا على القيام بهذا العمل الخطير، لحسن اعتقادهم به ولشدّة الحاجة إليه».

ـ فارس نمر (١٨٥٤ ـ ١٩٥٢): ولد في حاصبيّا. تلقّى علومه في إحدى مدارس صيدا، ثمّ في «الكليّة السوريّة الإنجيليّة» حيث التقى صديقه يعقوب صرّوف الذي، كما ورد سابقاً، أسّس وإيّاه مجلّة «المقتطف» ثم جريدة «المقطم» في مصر. وقد أخذ على عاتقه في جلّ ما كتب في «المقطّم» محاربة الفساد الذي كان يعشّش في كلّ زاوية من زوايا الدولة العثمانيّة في ظلّ الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد الثاني، ممّا دفع العثمانيّين إلى الحكم عليه بالموت. لكنّه عاش عمراً مديداً.

ـ سليمان البستاني (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥): ولد في بكشتين (الشوف)، وتلقّى علومه في «المدرسة الوطنيّة» لبطرس البستاني، ثمّ أصبح معلّماً في المدرسة نفسها. عمل في الصحافة فشارك في تحرير «الجنان» و «الجنينة» لنسيبه البستاني، وعاونه أيضاً في تأليف «دائرة المعارف».

أتقن لغات عديدة، كالعربيّة والتركيّة والفرنسيّة واليونانيّة وغيرها، وألمّ

ببعض اللغات الأخرى، كالألمانيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والروسيّة واللاتينيّة والعبريّة والسريانيّة وغيرها.

وإلى جانب إسهامه في «دائرة المعارف» التي أصدر منها ثلاثة مجلّدات، وضع ترجمة عربية لملحمة «الالياذة» الإغريقي هوميروس، وكتاباً بعنوان «عبرة وذكرى».

ـ خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩): وُلد في بعلبك. درس في المدرسة البطريركيّة في زحلة، وتعلّم العربيّة وقواعد الشعر على الشيخ إبراهيم اليازجي. ثمّ بدأ ينظم الشعر موجّهاً اهتمامه نحو انتقاد مفاسد السلطان عبد الحميد وظلمه، وهذا ما أجبره على مغادرة لبنان إلى فرنسا، وكان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره. وهناك، واصل توجّهاته السياسيّة المعارضة للعثمانيين. ثمّ انتقل إلى مصر حيث عمل في صحيفتي «الأهرام» و«المؤيد»، وأصدر «المجلّة المصريّة» و«الجوائب المصريّة».

وفي مجال الأدب قام بترجمة عدد من الأعمال المسرحيّة للكاتب البريطاني وليم شكسبير، أبرزها «هملت» و «عطيل» و «تاجر البندقيّة». وترجم أعمالاً مسرحيّة أخرى للفرنسي بيار كورني P. Corneille، منها «السيّد» و «سينّا».

وفي الشعر، ترك مطران ديواناً من أربعة أجزاء «ديوان الخليل»، يضمّ موضوعات تتراوح بين النمط التقليدي القديم، كالمدح والرثاء، وبين المواضيع التجديديّة التي تطرح مسائل وطنيّة وإنسانيّة واجتماعيّة ووجدانيّة. وقد خوّلته شهرته في نظم الشعر الحصول على لقب «شاعر القطرين» (مصر ولبنان)، وهو لقب انحصر به دون سواه.

ـ مارون عبّود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢): ولد في قرية عين كفاع (قضاء جبيل). بدأ دراسته في مدرسة القرية (تحت السنديانة حسب تسميته)، ثم التحق بمدرسة مار يوحنّا في البترون، ومنها إلى بيروت حيث تابع دروسه في مدرسة «الحكمة».

وكان أهله، وخصوصاً جدّه الكاهن، يأملون في أن يصبح مارون كاهناً

أيضاً، لكن طموحاته كانت مختلفة. فبعد إنهاء دراسته، راح يمارس الصحافة والتعليم، حيث تنقل بين عدد من المدارس إلى أن استقرّ في «الجامعة الوطنيّة» في عاليه، فدرّس اللغة والأدب العربيّين. وفي الوقت نفسه، كان ينشر مقالاته في الصحف والمجلاّت التي كانت تصدر في لبنان.

تميّز بأسلوب بسيط ساخر وناقد، وكان غزير الإنتاج. ففي آثاره التي تزيد عن الخمسين كتاباً، كان قاصّاً أحياناً، وفي أحيان أخرى، كان ناقداً اجتماعيّاً أو سياسيّاً أو أدبيّاً.

من مؤلّفاته: وجوه وحكايات، فارس آغا، صقر لبنان، أقزام وجبابرة، حبر على ورق، جدد وقدماء وغيرها. وله مؤلفات لم تنشر في حياته، منها «العجول المسمنة» «والمخدّة».

ـ عمر فاخوري (١٨٩٥ ـ ١٩٤٦): وُلد في بيروت، ودرس في «الكليّة العثمانيّة». اشترك في حركات سياسيّة مناوئة للحكم العثماني، أبرزها جمعيّة «العربيّة الفتاة». وعندما تشكّلت الحكومة العربيّة برئاسة الأمير فيصل في دمشق، كُلّف بتحرير الجريدة الرسميّة التي راحت تصدرها الحكومة.

درس الحقوق بين بيروت وباريس، ثمّ عمل في حقل اختصاصه وفي الصحافة، وأصدر عدداً من المؤلّفات، أبرزها الباب المرصود، أديب في السوق، كيف ينهض العرب، الفصول الأربعة، وغيرها.

ـ يوسف السودا (١٨٨٩ ـ ١٩٦٨): ولد في بكفيّا، ودرس الحقوق في بيروت وباريس وبرع في حقل المحاماة. وتميّز بمواقفه النضاليّة المطالبة بالاستقلال. وأصدر جريدة «الراية» ثم عمل في المجال الدبلوماسي، وبعده الحقل السياسي فكان نائباً ووزيراً.

من أهمّ مؤلفاته: نظام لبنان السياسي، في سبيل لبنان، تاريخ لبنان الحضاري، بين القديم والحديث، فرنسا ولبنان، الأحرفيّة، وغيرها.

ـ الياس أبو شبكة (١٩٠٣ ـ ١٩٤٧): وُلد في بروفيدانس (الولايات المتحدة الأميركيّة) أثناء رحلة لوالديه اللذين انتقلا به إلى باريس، ثم إلى

زوق مكايل، بلدته في قضاء كسروان. ربّته والدته وحيدة بعدما قُتل والده في السودان على أيدي بعض قطاع الطرق.

تلقّى علومه في مدرسة عينطورة ثمّ في مدرسة الأخوة المريميّين في جونية فعينطورة مجدّداً. لكنه ترك المدرسة قبل أن يتمّ دروسه الثانويّة.

استهوته مطالعة الشعراء الفرنسيّين من مختلف المدارس الأدبيّة، ولا سيما أصحاب المذهب الرومنطيقي الذي كان له تأثير كبير على المنحى الذي سلكه في شعره الذي بدأت طلائعه منذ كان بعد في المدرسة.

عمل في التعليم والصحافة من دون أن ينقطع عن كتابة الشعر. وكانت له محاولات ناضجة في الرسم نشرت في صحيفة «المعرض» خلال العامين (١٩٣٠ و ١٩٣١).

ورغم حياته القصيرة التي وضع سرطان الدم حدّاً لها، فقد ترك إنتاجاً غزيراً في الشعر والترجمة. وكانت له محاولات لا بأس بها في الأقصوصة، إلاّ أنها لم تبلغ المستوى الذي ارتقاه شعره.

ففي مجال الشعر ترك أبو شبكة «القيثارة»، «أفاعي الفردوس»، «الألحان» «نداء القلب»، «إلى الأبد»، و «غلواء».

وفي الترجمة، ترك آثاراً عديدة، أبرزها: جوسلين، الطبيب رغماً عنه، مريض الوهم، البخيل، سقوط ملاك وغيرها. وكلّها أعمال مسرحيّة مترجمة عن الكاتب الفرنسي موليير Molière.

ومن مؤلفاته الأخرى: «المجتمع الأفضل»، «لبنان في العالم»، «تلك آثارنا»، وفي القصّة له «العمال الصالحون».

ـ بولس سلامة (١٩٠٢ ـ ١٩٧٩): وُلد في بلدة بتدّين اللقش (قضاء جزين). درس في الجامعة اليسوعيّة في بيروت، حيث نال إجازة من معهد الحقوق فيها، ثم عمل محامياً فقاضياً؛ إلاّ أن المرض أقعده، فعانى منه طوال سبعة عشر عاماً خضع خلالها لأربع وعشرين عمليّة جراحيّة.

كتب في الشعر والنثر، وكان بارعاً في الإثنين معاً، حيث تميّز أسلوبه

بالعذوبة والقوّة في آن واحد. ورغم مرضه، كان غزير الإنتاج، فنال سنة ١٩٦٩ جائزة رئيس الجمهوريّة شارل حلو التي منحت له لغزارة إنتاجه وجودته.

من آثاره الأدبيّة: عيد الغدير، مذكرات الجريح، حديث العشيّة، حكاية عمر، عيد الرياض، الصراع في الوجود، من شرفتي، الأمير بشير، تحت السنديانة، وغيرها.

ـ أمين نخلة (١٩٠١ ـ ١٩٧٦): ولد في الباروك. والده أمير الزجل الشاعر رشيد بك نخلة، الذي نظم كلمات النشيد الوطني اللبناني، وقد تأثر الابن بوالده، فربي على حبّ الأدب والكلمة. نال إجازة في الحقوق ومارس المحاماة.

ترك في الشعر والنثر عدداً من المؤلفات القيّمة، أبرزها، في الشعر: دفتر الغزل، والديوان الجديد. وفي النثر: المفكرة الريفيّة، تحت قناطر أرسطو، كتاب الملوك، كتاب الدقائق في اللغة، كتاب المئة، وغيرها.

ـ أنيس فريحة: ولد سنة ١٩٠٢ في رأس المتن (قضاء بعبدا) وتلقّى علومه في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ثم في إحدى جامعات ألمانيا. وانتقل بعدها إلى الولايات المتحدة الأميركيّة حيث نال إجازة في العلوم الساميّة من جامعة شيكاغو.

ركّز اهتمامه في أبحاثه على حضارات المنطقة، وخصوصاً تلك التي نشأت في لبنان ومحيطه. وقد درّس هذه الأبحاث في عدد من جامعات لبنان وألمانيا والولايات المتحدة.

من أهم مؤلّفاته وأبحاثه: إسمع يا رضا، ملاحم وأساطير من أوغاريت، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، الفكاهة عند العرب، سوانح، القرية اللبنانية حضارة في تاريخ الزوال، وغيرها.

ـ فؤاد سليمان (١٩١٢ ـ ١٩٥١): وُلد في بلدة فيع، عمل في التعليم، ثم في الصحافة حيث رأس تحرير مجلّة «صوت المرأة»، ودوّن مقالاته في الأدب والسياسة والاجتماع ونشرها تحت اسم مستعار «تمّوز»، وقد تميّزت بالجرأة.

إلاّ أنّ عمره القصير لم يتح له الإنتاج الغزير، لكنه ترك أعمالاً بارزة، أهمّها: «درب القمر»، و «القناديل الحمراء»، و «تمّوزيّات»، و «أغاني تموز».

ـ توفيق يوسف عواد (١٩١١ ـ ١٩٨٩): ولد في بحرصاف، أظهر ميلاً إلى الأدب منذ حداثته. عمل في السلك الدبلوماسي، فمثّل لبنان سفيراً في عدد من عواصم العالم، وكان في الوقت نفسه، يمارس الكتابة، مركّزاً على القصة النابعة من صميم الواقع اللبناني.

من أهمّ مؤلفاته: الرغيف، الصبيّ الأعرج، قميص الصوف، السائح، والترجمان، غبار الأيّام، العذارى، قوافل الزمان، وغيرها.

سقط سنة ١٩٨٩ شهيداً في الحرب التي شهدها لبنان، بعدما سقطت قذيفة مدفعيّة على ملجأ السفارة الإسبانيّة في بعبدا حيث كان ملتجئاً من القصف.

ـ سعيد عقل: من أدباء لبنان الكبار في الشعر والنثر. ولد سنة ١٩١٢ في زحلة، أبدى ميلاً إلى الأدب منذ حداثة سنّه. وبعد إنهاء دراسته، مارس التعليم والصحافة فتنقّل بين المدارس والجامعات والصحف، ملقياً محاضرات عديدة وناشراً مواضيع أدبيّة بين شعر ونثر.

يتميّز أدبه بعاطفة رقيقة خصّصها للواطن والمرأة في شكل عام. وساهمت مطالعته لأهمّ الآثار الأدبيّة العالميّة في تعميق نظرته الأدبيّة ونزعته الإنسانيّة والرمزيّة في الكتابة.

أبرز مؤلفاته في الشعر: بنت يفتاح، المجدليّة، رندلى، أجمل منك؟ لا، أجراس الياسمين، دلزى، وقدموس. وفي النثر: لبنان إن حكى، كأس الخمر، وكتاب الورد، وله بالعاميّة «يارا».

وقد غُنّي العديد من قصائده، وخصوصاً بصوت فيروز وألحان الأخوين رحباني.

ـ بشارة الخوري (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨): وُلد في بيروت، وفيها تلقّى علومه. أسّس صحيفة «البرق» في بيروت سنة ١٩٠٨، واستمرّت في العمل

حتى العام ١٩٣١، عندما أصدر الإنتداب الفرنسي قراراً بوقفها عن العمل، لما كانت تنشره من مقالات مناهضة للسلطات الفرنسيّة الحاكمة. شارك كعضو في «المجمع العلمي العربي» في دمشق.

تلقّب بـ «الأخطل الصغير» وبويع بإمارة الشعر العربي بعد وفاة أمير الشعر السابق أحمد شوقي سنة ١٩٣٢.

ترك أثرين في الشعر، هما: «الهوى والشباب» و «شعر الأخطل الصغير».

تميّز أسلوبه بالرّقة والعذوبة، لا سيّما في أشعاره الغزليّة والوطنيّة، ممّا دفع بالعديد من الملحّنين المصريين واللبنانيين، لا سيّما محمد عبد الوهاب والأخوين رحباني وفريد الأطرش، إلى تلحين العديد من قصائده التي غناها عبد الوهاب نفسه وفيروز وغيرهما.

- صلاح لبكي (١٩٠٦ - ١٩٥٥): ولد في ساوباولو - البرازيل، حيث كان والده صحافياً ومالك جريدتين، هما «الرقيب» و «المناظر». عادت عائلته إلى لبنان سنة ١٩٠٨ وأقامت في بسكنتا لسنوات، إلى أن حكم الأتراك على والده بالإعدام لنشاطه الاستقلالي، ممّا أجبره على الفرار والتواري عن الأنظار. تلقّى علومه في مدارس بعبدات وبسكنتا، ، ثم في مدرسة «الحكمة» في بيروت.

مات والده سنة ١٩٢٤، فتحمّل صلاح مسؤولية إعالة إخوته. فمارس التعليم وعيّن مساعداً قضائياً، واستطاع متابعة تحصيله العلمي فنال إجازة في الحقوق.

مارس الصحافة في عدد من الصحف، أبرزها «الحديث»، «البشير»، «العمل» و «نداء الوطن».

توفي سنة ١٩٥٥، بعد معاناة مع المرض.

أبرز مؤلفاته: أرجوحة القمر، مواعيد، سأم، غرباء، من أعماق الجبل ولبنان الشاعر.

في خارج لبنان

تركّز نشاط الحركة الفكريّة للأدباء اللبنانيين المهجريّن في كلّ من الولايات المتحدة والبرازيل وفي مصر.

والحركة الأبرز تركّزت في الولايات المتحدة الأميركيّة، حيث اجتمع عدد من الكتّاب الذين ساقتهم أقدار وظروف مختلفة إلى العالم الجديد، بهدف تحصيل الرزق والعلم. وأتيح لهم هناك أن يطالعوا ويطّلعوا على كنوز الأدب الغربي الراقي، والتي لا مجال لمقارنتها بتلك المركّبات اللفظيّة والإنشائيّة التي كان العالم العربي غارقاً فيها وهو يتبجّج. فكانت المقالات المدبجة والقصائد المنمقة الخالية من أي عاطفة إنسانيّة نبيلة تطلّ في كلّ يوم، من هنا وهناك، مستهدفة الكسب المادّي الرخيص، ولا شيء أفضل من ذلك! فقصائد المدح والهجاء والرثاء والنواح كانت تصمّ آذان الإنسان العربي، في كلّ ساعة تكون فيها مناسبة فرح أو ترح.

تلك الحالة المزرية كانت موضع انتقاد بنّاء تولاّه بعض أقلام الأدباء المهجريّين، لا سيّما جبران والريحاني ونعيمة الذي كان التزم النقد الأدبي في تلك المرحلة في بدايات القرن العشرين.

وفي هذا المجال، يقول نعيمة في مقاله بعنوان «الحباحب» (الغربال ص ٤٥ ـ ٤٧ ـ ٥١): «ليست المصيبة أن لا كتّاب عندنا، بل المصيبة أن عندنا زمرة ـ والأصح جيشاً ـ من حملة الأقلام ومسوّدي الأوراق ندعوهم كتّاباً ونقنع بما «يطربوننا» به كلّ يوم من التهاني والمراثي، والغزل، ظانين أن هذا هو جلّ ما وجدت الأقلام لأجله، وأن هذا هو محيط الدائرة التي يقدر الكتاب أن يجول ضمنها مهما كانت مواهبه... أيّ فكر جديد أودعه العقل العربيّ منذ خمسمائة سنة في خزانة الآداب العموميّة فتداولته الألسن، وسهرت فوقه العقول؟... كم من الشباب الذين عندما يرون قصائدهم مدرجة في الجرائد ومشفوعة بنعوت من قلم محرّر الجريدة «قصيدة عامرة الأبيات من نظم الشاعر العصري المتفنّن فلان» يسكرون بخمرة الشهرة ويصبحون وهم يحلمون بمجد هوميروس وشكسبير وهينه إلخ، وهم ليسوا بين الشعراء إلاّ من الطبقة الرابعة التي قيل فيها: «وشاعر من حقّه أن

تصفعه». أليس هذا الشعور قرحاً مخيفاً في جسم الأمة التي تطلب سمكة فيعطونها حيّة؟».

وفي ما يلي لمحة عن أركان النهضة الأدبيّة اللبنانيّين في المهجر:

أوّلاً: في الولايات المتحدة

- الرابطة القلميّة (١٩٢٠ - ١٩٣١): تأسّست في الولايات المتحدة في ٢٠ نيسان ١٩٢٠ بفضل عصبة من الأدباء والشعراء اللبنانيّين، والسوريّين من الذين ربطت بينهم «ألفة أدبيّة وفنيّة وروحيّة» حسب تعبير مستشار الرابطة ميخائيل نعيمة.

وقد ضمّت الرابطة عشرة أعضاء، هم إلى جانب نعيمة: جبران خليل جبران الذي انتخب عميداً للرابطة، إيليا أبو ماضي، رشيد أيّوب، ندرة حداد، وديع باحوط، الياس عطاالله، عبد المسيح حداد، نسيب عريضة، ووليم كاتسفليس الذي كان أميناً للصندوق، أو الخازن.

وقد لخّص نعيمة الأهداف التي من أجلها نشأت الرابطة بما يلي:

- بثّ روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يصبح قوّة فعّالة في حياة الأمّة.

- نشر مؤلفات عمال الرابطة ومؤلفات سواهم من كتّاب العربيّة المستحقين، وترجمة المؤلّفات المهمّة من الآداب الأجنبيّة.

- منح جوائز ماليّة في الشعر والنثر والترجمة تشجيعاً للأدباء (جبران خليل جبران، صفحة ١٧٦).

وأخذ كتّاب الرابطة ينشرون أعمالهم النثريّة والشعريّة في مجلّة «السائح» التي كان يملكها عبد المسيح حدّاد، أحد أعضاء الرابطة.

وقد واجهت الرابطة حملات شنّها «أنصار التقليد والجمود»، لكن ذلك كان يزيد أعضاءها تصميماً على إتمام واجبهم تجاه الأدب المشرقي، وخصوصاً العربي، لإيقاظه من سباته العميق. إلاّ أن عمرها لن يكون طويلاً، لأن وفاة جبران، عميدها، في ١٠ نيسان ١٩٣١، وبعض أعضائها

الآخرين، وعودة نعيمة إلى لبنان سنة ١٩٣٢، وضعت حدّاً للرابطة كتجمّع. أمّا آثار أدبائها فقد بقيت لتشكّل الأساس الصلب الذي قامت عليه ونهلت منه الحركة الفكريّة في لبنان وجواره.

أضواء على أبرز أعضاء الرابطة من اللبنانيّين

ـ جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١): وُلد في بشرّي من أب مدمن على الكحول وأمّ عاقلة، ذات إرادة صلبة. فوضعت نصب عينيها تأمين مستقبل أولادها الأربعة رغم الفقر الذي كان يضغط بمخالبه على الجميع. ولم يكد جبران يبلغ الحادية عشرة من العمر، حتى حملته والدته مع إخوته وهاجرت إلى الولايات المتحدة الأميركيّة واستقرّت في أحد أحياء بوسطن. وأدخل جبران إلى إحدى المدارس.

وبعد سنوات قليلة، عاد جبران إلى لبنان ليتعلّم اللغة العربيّة، فالتحق بمدرسة الحكمة وبقي فيها أربع سنوات أتقن خلالها العربيّة والفرنسيّة.

ثم عاد إلى بوسطن حيث واجهته الحياة بموت أفراد عائلته، الواحد تلو الآخر، بسبب المرض. فماتت أخته سلطانة ثم أخوه بطرس، فوالدته كاملة. ولم يبق له سوى شقيقته ماريانا.

انتقل إلى باريس حيث تلقّى دروساً في الرسم لصقل موهبته التي اهتمّت برعايتها آنسة أميركيّة تُدعى ماري هاسكل. وبقي في فرنسا سنتين أُغرم خلالها بفتاة تُدعى ميشلين، وكان حبّاً يائساً.

بعد ذلك، عاد إلى أميركا واستقرّ في نيويورك حيث أنشأ محترفاً للرسم، وراح يرسم ويكتب وينشر، وهناك تعرّف إلى ميخائيل نعيمة وعدد من الكتّاب والشعراء وأنشأ معهم «الرابطة القلميّة»، واستمرّ في عطاء القلم والرّيشة حتى أنهكه المرض (السلّ وسرطان الكبد) فصرعه في ١٠ نيسان ١٩٣١ في أحد مستشفيات نيويورك.

تميّز جبران بشخصيّة ثوريّة ناقمة على الظلم وعلى الطبقيّة في المجتمع. وفي الوقت نفسه، كان رومنطيقيّاً في شعره ورمزيّاً في لوحاته التي جعل الإنسان عنوانها.

من أبرز آثاره: ـ في العربيّة: عرائس المروج، الأرواح المتمرّدة، الأجنحة المتكسّرة، دمعة وابتسامة، المواكب، العواصف، والبدائع والطرائف.

ـ في الإنكليزيّة: السابق، المجنون، رمل وزبد، يسوع ابن الإنسان، والنبي.

ـ ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ ـ ١٩٨٨): وُلد في بسكنتا، وتلقّى علومه الأولى فيها، ثم في الناصرة في فلسطين. بعد ذلك، تابع علومه في روسيّا التي أتقن لغة شعبها، وفيها بدأ أولى محاولاته الشعريّة (النهر المتجمّد).

عاد إلى لبنان، ومنه سافر إلى الولايات المتحدة حيث نال إجازتين في الآداب والحقوق. وأثناء الحرب العالمية الثانية، طاله التجنيد الإجباري، فأرسل مع قوات الجيش الأميركي إلى فرنسا لمقاتلة ألمانيا، وعاد منها سالماً إلى الولايات المتحدة.

عمل فترة في المحاسبة لتأمين لقمة عيشه، وواظب على الكتابة والتأليف، مركّزاً على النقد الأدبي. وكان أوّل مقال نقدي كتبه بعنوان «فجر الأمل بعد ليل اليأس» تناول فيه رواية جبران «الأجنحة المتكسرة». وكان لهذا المقال الفضل في لقاء جبران ونعيمة الأوّل. وترافقا على طريق الحياة والأدب وفي «الرابطة القلميّة» حتى وفاة جبران سنة ١٩٣١. فعاد نعيمة إلى لبنان بعد ذلك بسنة، واستقرّ في بلدته بسكنتا شتاء، وفي جوارها الشخروب صيفاً، وانصرف إلى الكتابة والتأليف. وقد جعلت عزلته هذه الأديب اللبناني الراحل توفيق يوسف عوّاد يلقّبه بـ «ناسك الشخروب».

وأمضى نعيمة معظم حياته التي قاربت المئة عام في لبنان حتى وفاته في شباط ١٩٨٨، تاركاً عدداً كبيراً من المؤلفات القيّمة التي ترجم بعضها إلى عدد من اللغات العالميّة.

من أبرز مؤلّفاته: ـ في العربيّة: الآباء والبنون، الغربال، المراحل، زاد المعاد، كان ما كان، همس الجفون (شعر)، صوت العالم، في مهب الريح، سبعون، اليوم الأخير، يا ابن آدم، من وحي المسيح وغيرها.

ـ في الإنكليزيّة: كتاب مرداد، جبران خليل جبران، مذكّرات الأرقش وغيرها. وجميع هذه الكتب ترجمها نعيمة إلى اللغة العربيّة.

كتب نعيمة في القصة والشعر والنقد الأدبي الاجتماعي والفلسفة والوجدانيّات. وبلغ قمّة عطائه في «كتاب مرداد» الذي يُعتبر الكتاب الأهم الذي أصدره. وقد جعل الإنسان همّه الأوّل في معظم ما كتب.

ـ إيليّا أبو ماضي (١٨٩٠ ـ ١٩٥٧): وُلد في بلدة المحيدثة، قرب بكفيّا، وسافر إلى مصر في الحادية عشرة من عمره، حيث راح يعمل نهاراً في متجر عمّه ويدرس ليلاً، وقد أحبّ الشعر منذ صغره، وأخذ ينظمه وينشر قصائده في مجلّة «الزهور». وفي العام ١٩١٢، صدر له ديوانه الأوّل بعنوان «تذكار الماضي».

بعد ذلك، هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، وراح يعمل في مجال التجارة، ثم أصبح عضواً في «الرابطة القلميّة»، ولقّب بشاعرها.

وفي العام ١٩٢٩، أسّس مجلّة «السمير»، التي ظلّت تصدر حتى وفاته. وقد تناول في هذه المجلّة، التي صارت تصدر يوميّاً بعد فترة من تأسيسها، مختلف المواضيع، وخصوصاً القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة.

بالإضافة إلى «تذكار الماضي»، ترك أبو ماضي أربعة دواوين، هي «ديوان أبو ماضي»، و «الجداول»، «الخمائل»، و «تبر وتراب». والديوان الأخير نشر بعد وفاته.

ـ رشيد أيوب (١٨٧١ ـ ١٩٤١): وُلد في بسكنتا. سافر إلى الولايات المتحدة قبل أن يتلقّى ثقافة واسعة. لكنه أبدى ميلاً إلى نظم الشعر، وبدأ ينشر قصائده في بعض المجلات العربيّة التي كانت تصدر في أميركا. انضمّ إلى «الرابطة القلميّة». من أبرز آثاره ديوان شعري بعنوان «أغاني الدرويش».

ـ نسيب عريضة (١٨٨٧ ـ ١٩٤٦): ولد في حمص من والدين ارثوذوكسيين وتابع دروسه الابتدائية في المدرسة الروسية ومن ثم دخل دار المعلمين الروسية سنة ١٩٠٠. وفي سنة ١٩٠٥ سافر إلى نيويورك حيث عمل «ماسك دفاتر» عند أبناء عمه. غير أن الحساب لم يكن يستهويه، لذلك راح

ينظم الشعر ويطالع لساعات طوال في أوقات فراغه. وما هي إلا سنوات قليلة حتى ترك التجارة وأسس مطبعة «الأتلنتيك» وأصدر مجلة «الفنون» التي توقفت عن الصدور بعد فترة قصيرة لأسباب مالية. وفي سنة ١٩١٦ أعاد إطلاق «الفنون»، لكن الظروف عاكسته تلك المرة أيضاً واضطر إلى إيقافها بعد سنتين. ثم عمل كمحرر في جريدة «السائح» و «مرآة الغرب» و «الهدى» وكمترجم في مكتب الأنباء الأميركي. وفي ٢٥ آذار ١٩٤٦ توفي نسيب عريضة. أما الأثر الوحيد الذي تركه لنا فهو ديوان «الأرواح الحائرة».

❀ ❀ ❀

تعرّضت «الرابطة» لحملات تجريح ونقد من التقليديّين والمتمسّكين بقواعد اللغة وقوانين الخليل وعروضه وأوزانه. لكن ذلك لم يزدها إلاّ قوّة، فراح نهجها التجديدي ينتشر ليحطّم القيود التي كانت تكبّل الأدب العربي وينطلق به إلى عالم الإنسان والحق والجمال. ولم يتوانَ أركانها عن الدفاع عن خطّهم الأدبي، فكانوا يردّون على من وصف نعيمة ضجيج احتجاجاتهم بـ «نقيق الضفادع».

فجبران يقول في كتابه «دمعة وابتسامة»، وتحت عنوان «شعراء المهجر»:

«لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال.

«ولو تنبّأ المتنبي وافترض الفارض أن ما كتبناه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال.

«ولو درت أرواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرّة وملتون أن الشعر المتجسّم من النفس المشابهة لله سيحط رحاله في منازل الأغنياء لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات.

«ما أنا من المتعنّتين، لكن يعزّ عليّ أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة

الأغبياء، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدّعين، ولست منفرداً في وهدة الاستياء بل رأيتني واحداً من كثيرين نظروا الضفدع تنتفخ تمثلاً بالجاموس.

«الشعر يا قوم روح مقدّسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها. أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوقى...».

وعن الدور الذي لعبته «الرابطة القلميّة»، يقول ميخائيل نعيمة في كتابه «في الغربال الجديد»: «لقد كان من ثورة «الرابطة القلميّة» على التقليد أن خلقت أدباً إنسانيّاً شاملاً، وخلقت شعراً لا أثر فيه للفخر والحماسة والهجاء، والتّسكع في المدح، والتفجّع الكاذب في الرثاء. أما الغزل فقد أقلعت فيه عن أساليب القدامى. وأمّا القوالب الشعريّة فقد زاوجت فيها ما بين البحور الكاملة ومجازيئها، والبحور التي تدانيها في جرسها، ونوّعت القوافي فقسمت القصيدة الواحدة إلى مقاطع، جاعلة لكلّ مقطع قافية غير التي للذي قبله أو بعده. ومن ثمّ ربطت القصيدة من أوّلها إلى آخرها بفكرة واحدة أو قصد واحد بحيث لا تبدو مفككة الأوصال، عديمة الانسجام. ذلك مع الافتنان في تبديل الصور وتلوينها، وفي تزاوج الأنغام وتنويعها...».

❀ ❀ ❀

من الأدباء المهجريّين الذين لم ينتموا إلى «الرابطة القلميّة» أمين الريحاني أو «فيلسوف الفريكة» كما لقّب. وعدم انضمامه إلى «الرابطة» يعزوه نعيمة في كتابه «سبعون» ـ الجزء الثاني، إلى الخلاف الحادّ الذي ساد بين الريحاني وجبران، عميد «الرابطة».

وأمين الريحاني (١٧٨٦ ـ ١٩٤٠) ولد في قرية الفريكة. سافر إلى الولايات المتحدة مع عمه سنة ١٨٨٧ حيث التحق ببعض المدارس. لكن مهنة التجارة استهوته، وكان والده وعمه يمارسانها. فترك المدرسة وراح يعمل في التجارة. لكنه في الوقت نفسه، لم يهمل القراءة، فأخذ يطالع كتباً

عربيّة مختلفة تتناول الأدب والتاريخ. وقرأ مؤلّفات على النحو ذاته باللغة الإنكليزيّة.

بعد ذلك، عاد مجدّداً إلى الدراسة حيث التحق بإحدى كليات الحقوق في نيويورك. ثم عاد فترة إلى لبنان حيث ترجم «لزوميّات» أبي العلاء المعرّي إلى الإنكليزيّة ونشرها في أميركا تحت عنوان «رباعيات المعرّي».

وأثناء وجوده في أميركا، استهواه السفر، فزار عدداً من البلدان الأوروبيّة والأفريقيّة واطّلع على عادات شعوبها وتقاليدها. وقد ساعدته أسفاره العديدة في معرفة معنى الحرية والاستقلال، فأدرك الواقع الأليم الذي كانت تعيشه بلاده والعالم العربي في ظلّ الاحتلال العثماني، والظلم الذي كان يمارسه هذا الاحتلال في حقّ شعوب تلك المنطقة.

وما كادت الحرب العالميّة الأولى تنتهي، حتى أدرك الريحاني أن ما كان يُعدّ لبلده ولمحيطه العربي كان أبعد ما يكون عن الاستقلال. فقرّر القيام بعمل ما يدفع زعماء العالم العربي إلى الاقتناع بأن جمع الصفوف وتوحيد الكلمة هما الطريق الوحيدة لبلوغ الهدف المنشود في تحقيق الاستقلال.

وعلى هذا الأمل، بدأ سنة ١٩٢٢ رحلة طاف خلالها على معظم المناطق والبلاد العربيّة، ومنها مصر، والحجاز، واليمن، والكويت، والعراق. واتّصل بعدد من الزعماء العرب. ثمّ استقرّ لفترة في لبنان، قبل أن يعود إلى التنقل بينه وبين أميركا. وعندما اعتلّت صحّته، عاد إلى لبنان، ومكث فيه حتى وفاته بعدما سقط عن دراجته بسبب معاناته مرض الروماتيزم.

من أهمّ مؤلفاته: ـ بالعربيّة: ملوك العرب، قلب العراق، قلب لبنان، زنبقة الغور، الريحانيّات، التطرّف والإصلاح، هتاف الأودية (شعر منثور) وغيرها.

ـ بالإنكليزيّة: لزوميّات المعرّي، ابن سعود ونجد.

ثانياً: في البرازيل:

ـ فوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠): وُلد في زحلة، ودرس على مقاعد «الكليّة الشرقيّة» وبدأ يظهر ميلاً إلى الشعر منذ فتوّته، وساعدته مكتبة والده، عيسى اسكندر المعلوف، الغنيّة على مطالعة أهمّ المؤلفات.

بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، توجّه إلى الشام وراح يعمل في دار المعلّمين وفي المعهد الطبّي العربي. وفي الوقت نفسه، كان يكتب وينشر ما يكتبه أو ينظمه في الصحف والمجلاّت.

ثمّ سافر إلى البرازيل، حيث عمل مع شقيقه وأخواله في إدارة مصانع الحرير، وأسّس «النادي الزحلي» في ساو باولو. وحقّق نجاحاً في العمل والشعر. إلا أن مرضاً أصابه وأودى به، وهو في مطلع العقد الرابع من العمر.

من أهمّ مؤلفاته ديوان شعر بعنوان «بساط الريح».

ـ شفيق المعلوف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٦): وُلد في زحلة، وهو شقيق فوزي ورياض المعلوف. استفاد هو أيضاً من مكتبة والده، فوجّه اهتماماته نحو المجال الأدبي. رأس تحرير مجلّة «ألف باء» في لبنان. ثم هاجر إلى البرازيل مع أخواله وشقيقه فوزي. وعمل في التجارة والصناعة. لكنه لم يهمل الأدب، فشارك في تأسيس «العصبة الأندلسيّة» التي كانت على غرار «الرابطة القلميّة» وترأسها.

من أهمّ مؤلفاته: ملحمة «عبقر» التي ترجمت إلى لغات عديدة، «لكلّ زهرة عبير» «نداء المجاذيف»، و «رواية ليلى الأخيليّة»، و «سنابل راعوث».

ثالثاً: في العالم العربي:

ـ مي زيادة (١٨٩٥ ـ ١٩٤١): وُلدت في الناصرة (فلسطين). تميّزت منذ صغرها بمسحة من الحزن والكآبة. تلقّت علومها في لبنان، ثم عادت إلى الناصرة. ومن هناك انتقلت إلى مصر حيث استهواها الأدب بمنحاه الرومنطيقي بسبب عشقها للطبيعة. وأتاح لها حبّها للمطالعة الاطّلاع على أبرز الآثار الأدبيّة، العربيّة والغربيّة، كونها تتقن عدداً من اللغات.

مارست التعليم والصحافة. وساهمت في نهضة المرأة العربيّة وسعت دائماً إلى تحريرها من عبوديّة الرجل والمجتمع والتقاليد.

تبادلت رسائل عديدة مع جبران خليل جبران، كان محورها الأوضاع الاجتماعيّة في المجتمعات العربيّة والنهضة العربيّة في بداية القرن العشرين.

من أهمّ مؤلّفاتها: باحثة البادية، سوانح فتاة، المساواة، وكلمات وإشارات.

- جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤): وُلد في بيروت، وفيها تلقّى علومه. سافر إلى القاهرة حيث أسّس مجلّة «الهلال» سنة ١٨٩٢، ثم «دار الهلال للطباعة والنشر». كتب في الأدب والتاريخ، وترك عدداً كبيراً من المؤلفات، أهمّها: «تاريخ آداب اللغة العربيّة»، «تاريخ التمدّن الإسلامي»، «تراجم مشاهير الشرق»، «العرب قبل الإسلام» «فتاة غسان»، «عذراء قريش» و «غادة كربلاء».

- **أحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢)**: ولد في القاهرة ونشأ بين أحضان جدته لأمه التي كانت وصيفة في قصر إسماعيل. دخل كلية الحقوق وقسم الترجمة حيث برع، مما دفع الخديوي توفيق إلى إرساله في بعثة إلى فرنسا وتابع في مونبلييه لمدة أربع سنوات دراسة الحقوق والآداب.

رجع شوقي إلى مصر سنة ١٨٩٢، فقربه منه الخديوي عباس وتعهده، وجعله شاعره الخاص. ومع نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، خلعت إنكلترا الخديوي عباس ونفت أحمد شوقي من مصر، تاركة له حق الاختيار، فوقع اختياره على الأندلس.

وفي سنة ١٩١٩ عاد إلى مصر بعد أن عفت عنه السلطات المصرية. وراح ينظم الأشعار حول مواضيع تهم مصر والشعوب العربية. وفي سنة ١٩٢٧ بايعته الوفود العربية بإمارة الشعر، وقال حافظ إبراهيم في تلك المناسبة:

أمير القوافي، قد أتيت مبايعاً   وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

توفي أحمد شوقي سنة ١٩٣٢ تاركاً وراءه إنتاجاً غزيراً في الشعر والنثر، أهمه: الشوقيات ومسرحية سبع.

اعتبر أحمد شوقي أن للشعر ثلاث ركائز يعتمد عليها هي التاريخ والعاطفة والحكمة، وإذا خلا من أي منها أصبح تقطيعاً وأوزاناً وحسب. وحافظ في أشعاره على هذا الأمر، فنحن نجد في قصيدته الهمزية مثلاً أهم الحوادث التي عرفها النيل وهي تعطي صورة واضحة عن حضارة مصر، وكذلك تعتبر قصائده في الأهرام وتوت عنخ آمون وقصور أنس الوجود وأبي الهول لوحات خالدة وشهادة حية على الحضارة المصرية العريقة. وهو قد قال: «الشعر ابن أبوين: التاريخ والطبيعة».

وتتأجج قصائد شوقي بالعاطفة الوطنية وبالفخر والاعتزاز والصدق وهو يدعو إلى ترك الأحقاد والعمل معاً في سبيل الوطن. وشارك أيضاً العرب في أحزانهم وفي أفراحهم.

ـ قاسم أمين (١٨٦٣ ـ ١٩٠٨): ولد في القاهرة من والد تركي الأصل، كان يعمل ضابطاً في الجيش المصري. كان شديد التفوق في دراسته مما خصه بمنحة للدراسة في جامعة مونبيلييه الفرنسية للتخصص في الدراسات القانونية. كان يعشق المطالعة، فانكب على الكتب الفرنسية يعب من منهلها وكله شغف لدراسة الحضارة الغربية ونظمها وثوراتها وطريقة تعاملها مع المرأة. وبعد عودته إلى مصر سنة ١٨٨٥ دخل إلى سلك القضاء وتولى مناصب رفيعة، وتميز بنزاهته وسعة إطلاعه. وتوفي قاسم أمين سنة ١٩٠٨. ومن أكثر المواضيع التي اهتم بها أمين قضية تحرير المرأة والدفاع عنها، ومن أبرز مؤلفاته في هذا المجال كتاب «تحرير المرأة» وكتاب «المرأة الجديدة».

ـ المنفلوطي: ولد مصطفى بن محمد لطفي المنفلوطي سنة ١٨٧٦ في مصر. انتقل سنة ١٠٨٧ إلى القاهرة ودخل إلى جامع الأزهر حيث درس علوم الدين واللغة لمدة عشر سنوات. غير أن الأدب كان يستهويه، مع العلم أن قانون الجامع كان ينهي عن قراءة الكتب الأدبية. ترك المنفلوطي الأزهر سنة ١٨٩٧ وتتلمذ على الشيخ محمد عبده، فدرس على يده الأدب والأخلاق والحكمة. توفي الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥، فاضطر إلى العودة إلى منفلوط ضيعته الأم حيث مكث سنتين ومن ثم توجه إلى القاهرة

حيث انكب على الكتابة والتأليف إلى أن لاقته المنية سنة ١٩٢٤.

ومن الآثار التي خلفها المنفلوطي النظرات (ثلاثة أجزاء)، والعبرات، ومجدولين والفضيلة، وهي بمعظمها مترجمة عن الفرنسية.

ـ **أبو القاسم الشابي**: ولد أبو القاسم الشابي في تونس سنة ١٩٠٩ من والد يعمل كقاضٍ، فتعلم منه أصول اللغة وقواعدها. درس الحقوق في جامع الزيتونة في تونس، ونال إجازة فيها. غير أن نفسه مالت إلى الشعر والأدب أكثر من الحقوق، فراح ينظم الشعر ويتصل بكبار الأدباء والمفكرين، ويكتب المقالات ويلقي المحاضرات. ودفعته رغبته في التجديد إلى الاتصال بجماعة أبولو في مصر، وهي بمثابة «حلقة من الشعراء المجاهدين الذين سعوا إلى تطوير الشعر العربي وتحريره من القيود والقوالب والموضوعات التقليدية القديمة». وقد نشرت له هذه الجماعة في مجلتها بعض قصائده وأشعاره.

غير أن أبا القاسم توفي سنة ١٩٣٤ وهو في الخامسة والعشرين من عمره، تاركاً مجموعة من الآثار أهمها ديوان «أغاني الحياة» ودراسة «الخيال الشعري عند العرب».

وتميز الشابي بحبه للحياة وتساميه على الآلام التي كانت تنوء عليه بحملها بسبب التورم في قلبه الذي أدى إلى مقتله وموت حبيبته ووالده.

ـ **نزار قباني**: ولد نزار قباني في دمشق ١٩٢٣. درس الحقوق وعمل في السلك الدبلوماسي حتى سنة ١٩٦٦ حيث اعتزل الوظيفة وانصرف إلى الشعر. يعد نزار قباني من كبار المجددين في شعر الغزل والحب. يتميز أسلوبه بالرقة والعذوبة والعفوية والموسيقى. أقام مدة طويلة في لندن وتوفي فيها سنة ١٩٩٨.

من دواوينه الشعرية: قالت لي السمراء، طفولة نهد، سامبا، أنت لي، يوميات امرأة لا مبالية، قصائد متوحشة، كتاب الحب، إلى بيروت الأنثى مع حبي.

نماذج

من عصر النهضة

في الشعر والنثر

جبران خليل جبران

المحبّة

حينئذ قالت له المطرة: هات لنا خطبة في المحبة.

فرفع رأسه ونظر إلى الشعب نظرة محبة وحنان، فصمتوا جميعهم خاشعين. فقال لهم بصوت عظيم:

إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها،

وإن كانت مسالكها صعبة متحدّرة.

وإذا ضمّتكم بجناحيها فأطيعوها،

وإن جرحكم السيفُ المستور بين ريشها.

وإذا خاطبتكم المحبة فصدّقوها،

وإن عطل صوتها أحلامكم وبددها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعاً صفصفاً.

❀ ❀ ❀

لأنّه كما أن المحبة تكللكم، فهي أيضاً تصلبكم.

وكما تعمل على نموّكم، هكذا تعلّمكم وتستأصل الفاسد منكم.

وكما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس،

هكذا تنحدر إلى جذورها الملتصقة بالتراب وتهزها في سكينة الليل.

❀ ❀ ❀

المحبة تضمّكم إلى قلبها كأغمار الحنطة.

وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم.

وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم.

وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج.

وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا،

ثم تعدّكم لنارها المقدسة، لكي تصيروا خبزاً مقدّساً يقرّب على مائدة الرب المقدّسة.

❀ ❀ ❀

كل هذا تصنعه المحبة لكم لكي تدركوا أسرار قلوبكم، فتصبحوا بهذا الإدراك جزءاً من قلب الحياة.

غير أنّكم إذا خفتم، وقصرتم سعيكم على الطمأنينة واللذة في المحبة:

فالأجدر بكم أن تستروا عريكم وتخرجوا من بيدر المحبة إلى العالم البعيد حيثما تضحكون، ولكن ليس كل ضحككم، وتبكون، ولكن ليس كلّ ما في مآقيكم من الدموع.

❀ ❀ ❀

المحبة لا تعطي إلاّ نفسها، ولا تأخذ إلاّ من نفسها.

المحبة لا تملك شيئاً، ولا تريد أن يملكها أحد:

لأن المحبة مكتفية بالمحبة.

❀ ❀ ❀

أما أنت إذا أحببت فلا تقل: «إن الله في قلبي»، بل قل بالأحرى: «أنا في قلب الله».

ولا يخطر لك البتّة أنّك تستطيع أن تتسلط على مسالك المحبة، لأنّ المحبة، إن رأت فيك استحقاقاً لنعمتها، تتسلط هي على مسالكك.

والمحبة لا رغبة لها إلا في أن تكمّل نفسها.

ولكن إذا أحببت، وكان لا بدّ من أن تكون لك رغبات خاصة بك، فلتكن هذه رغباتك.

أن تذوب وتكون كجدول متدفّق يشنف آذان الليل بأنغامه.

أن تخبر الآلام التي في العطف المتناهي.

أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة في حبة قلبك، وأن تنزف دماؤك وأنت راضٍ مغتبط.

أن تنهض عند الفجر بقلب مجنح خفوق، فتؤدي واجب الشكر ملتمساً يوم محبة آخر.

أن تستريح عند الظهيرة وتناجي نفسك بوجد المحبة.

أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكراً:

فتنام حينئذٍ والصلاة لأجل من أحببت تتردّد في قلبك وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك.

- النبي -

البنفسجة الطموح

كان في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا، طيبة العرف، تعيش قانعة بين أترابها وتتمايل فرحة بين قامات الأعشاب.

ففي صباح، وقد تكلّلت بقطر الندى، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنّه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد.

ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهّدة: ما أقل حظي بين الرياحين، وما أوضع مقامي بين الأزهار! فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة، حقيرة، أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أحول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود.

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت: ما أغباك بين الأزهار! فأنت في نعمة تجهلين قيمتها. فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين. فخلّي عنك هذه الميول العوجاء والأماني الشريرة وكوني قنوعاً بما قسم لك واعلمي أن من خفض جناحه رفع قدره، وإن من طلب المزيد وقع في النقصان.

فأجابت البنفسجة قائلة: أنت تعزينني أيتها الوردة لأنك حاصلة على ما أتمناه، وتغمرين حقارتي بالحكم، لأنك عظيمة. وما أمرّ مواعظ السعداء في قلوب التاعسين وما أقسى القوي إذا وقف خطيباً بين الضعفاء!

❀ ❀ ❀

وسمعت الطبيعةَ ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزّت مستغربة ثمّ رفعت صوتها قائلة:

ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة

بصغرك شريفة بمسكنتك، فهل استهوتك المطامع القبيحة أم سلبت عقلك العظمة الفارغة؟

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف:

أيّتها الأم العظيمة بجبروتها، الهائلة بحنانها، أضرع إليك بكلّ ما في قلبي من التوسّل، وما في روحي من الرجاء أن تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً.

فقالت الطبيعة: أنت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية، فإذا رفعت قامتك وبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم.

فقالت البنفسجة: حوّلي كياني البنفسجي إلى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس... ومهما يحلّ بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي.

فقالت الطبيعة: لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة، ولكن إذا دهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك.

ومدّت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة إلى وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين.

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبدّ الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار ثمّ هاجت سواكن الوجود فأبرقت ورعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الأمطار والأهوية، فكسرت الأغصان ولوت الأنصاب واقتلعت الأزهار المتشامخة ولم تبقِ إلاّ على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالأرض أو تختبىء بين الصخور.

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة أخرى.

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزهارها هباء منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار الحديقة.

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حلّ بأزهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحاً ثمّ نادت رفيقاتها قائلة: ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً وعُجباً.

وقالت بنفسجة أخرى: نحن نلتصق بالتراب ولكنّنا نسلم من غضب العواصف والأنواء.

وقالت بنفسجة ثالثة: نحن حقيرات الأجسام غير أن الزوابع لا تستطيع التغلّب علينا.

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الرياح وألقتها على الأعشاب المبلّلة فبانت كقتيل أرداه العدو بسهم.

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدّت أوراقها. ونادت رفيقاتها قائلة: تأمّلن وانظرن يا بناتي. انظرن إلى البنفسجة التي غرّتها المطامع فتحوّلت إلى وردة لتتشامخ ساعة ثمّ هبطت إلى الحضيض. ليكن هذا المشهد أمثولة لكنّ.

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت منقطع قالت:

ألا فاسمعن أيّتها الجاهلات القانعات، الخائفات من العواصف والأعاصير. لقد كنت بالأمس مثلكن أجلس بين أوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة وأهويتها ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة، متناهياً بما يساوره من الراحة والطمأنينة. ولقد كان بإمكاني أن أعيش نظيركنّ ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه وأذهب كمن ذهب قبلي إلى سكينة الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الأرض. لقد كان بإمكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الأمور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي. ولكني أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم: «إنّما القصد من الوجود الطموح

إلى ما وراء الوجود». فتمرّدت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني، وما زلت أتمرد على ذاتي وأتشوق إلى ما ليس لي حتى انقلب تمرّدي إلى قوّة فعالة واستحال شوقي إلى إرادة مبدعة فطلبت إلى الطبيعة ـ وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لأحلامنا الخفيّة ـ أن تحوّلني إلى وردة ففعلت، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق.

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوّق:

لقد عشت ساعة كملكة. لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود، وسمعت همس الأثير بآذان الورود، ولمست ثنايا النور بأوراق الورود. فهل بينكنّ من تستطيع أن تدّعي شرفي؟

ثمّ لوت عنقها، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت:

أنا أموت الآن. أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي. أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه، وهذا هو القصد من الحياة. هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيّام والليالي.

وأطبقت الوردة أوراقها وارتعشت قليلاً ثمّ ماتت وعلى وجهها ابتسامة علويّة ـ ابتسامة من حقّقت الحياة أمانيه ـ ابتسامة النصر والتغلّب ـ ابتسامة الله.

ـ العواصف ـ

يا نفس

يا نَفسُ لولا مَطمَعي   بالخلدِ ما كنتُ أعي
لحناً تُغنّيهِ الدّهورْ
بل كنتُ أَنهي حاضري   قَسراً فيَغدو ظاهري
سرًّا تُواريهِ القُبُورْ

❀ ❀ ❀

يا نَفسُ لوْ لم أغتَسِلْ   بالدّمعِ أوْ لم يكتَحِلْ
جفني بأشباحِ السّقامْ
لعشتُ أعمَى وعلى   بَصيرَتي ظفرٌ، فَلا
أرَى سوَى وجهِ الظّلامْ

❀ ❀ ❀

يا نفسُ ما العيشُ سوَى   ليلٍ إذا جَنَّ انتَهَى
بالفَجرِ، والفجرُ يَدومْ
وفي ظما قَلبي دَليل   على وُجُودِ السّلسبيل
في جرّةِ الموْتِ الرّحومْ

❀ ❀ ❀

يا نفس إن قال الجهول: الروح كالجسم تزول
وما يزول لا يعودْ
قولي له إن الزهور   تمضي ولكن البذور
تبقى وذا كنه الوجودْ

- البدائع والطرائف -

مات أهلي

كتبت أيام المجاعة

مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي.

مات أحبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم.

مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي، وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان أهلي وأحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس.

مات أهلي جائعين، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحدّ السيف، وأنا في هذه البلاد القصيّة أسير بين قوم فرحين مغتبطين يتناولون المآكل الشهيّة والمشارب الطيّبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيام والأيّام تضحك لهم.

مات أهلي أذلّ ميتة، وأنا ههنا أعيش في رغد وسلام. وهذه هي المأساة المستتبّة على مسرح نفسي.

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين مضطهداً بين قومي المضطهدين، لكانت الأيّام أخفّ وطأة على صدري، والليالي أقلّ سواداً أمام عينيّ، لأن من يشارك أهله بالأسى والشدّة يشعر بتلك التعزية العلويّة التي يولدها الاستشهاد، بل يفتخر بنفسه لأنّه يموت بريئاً مع الأبرياء.

لكني لست مع قومي الجائعين، المضطهدين، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظلّ الطمأنينة وخمول السلامة. أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفخر بشيء حتى ولا بدموعي.

وماذا عسى يقدر المنفيّ البعيد أن يفعل لأهله الجائعين؟.

ليت شعري، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه؟.

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحبّاتي الموت عن نفسه.

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً.

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظلّ القبر عن جسده.

ولكن، واحرّ قلباه، لست بسنبلة من القمح في سهل سوريا، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان، وهذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً أمام نفسي وأمام أشباح الليل.

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبّل يديّ ثم توقفني بلا عزم، ولا إرادة، ولا عمل.

يقولون لي: ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم، وما الدموع والدماء التي أُهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفّق ليلاً ونهاراً في أودية الأرض وسهولها.

نعم، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء ـ نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الأفاعي والثّعابين ـ نكبة بلادي مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد.

لو ثار قومي على حكّامهم الطغاة وماتوا جميعهم متمرّدين لقلت إن الموت في سبيل الحريّة لأشرف من الحياة في ضلال الاستسلام. ومن يعتنق الأبديّة والسيف في يده كان خالداً بخلود الحق.

لو اشتركت أمّتي بحرب الأمم وانقرضت على بكرة أبيها في ساحة القتال لقلت: هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الأغصان الخضراء واليابسة معاً، وإن الموت تحت أغصان العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة.

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدراً وغمر التراب

أهلي وأحبائي لقلت: هي النواميس الخفيّة تتحرك بمشيئة قوّة فوق قوة البشر، فمن الجهالة أن نحاول إدراك أسرارها وخفاياها.

ولكن لم يمت أهلي متمرّدين، ولا هلكوا محاربين، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين.

مات أهلي على الصليب.

ماتوا وأكفّهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة إلى سواد الفضاء.

ماتوا صامتين لأن آذان البشريّة قد أُغلقت دون صراخهم.

ماتوا لأنّهم لم يحبّوا أعداءهم كالجبناء، ولم يكرهوا محبّيهم كالجاحدين.

ماتوا لأنّهم لم يظلموا الظالمين.

ماتوا لأنّهم كانوا مسالمين.

ماتوا جوعاً في الأرض التي تدرّ لبناً وعسلاً.

ماتوا لأنّ الثعبان قد التهم كلّ ما في حقولهم من المواشي وما في أهرائهم من الأقوات.

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد نفثوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين.

مات أهلي وأهلكم أيها السّوريون، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم يمت منهم؟

إن نواحنا لا يسدّ رمقهم، ودموعنا لا تروي غليلهم، إذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدّة؟

هل نبقى مرتابين متردّدين، متكاسلين، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها؟

إن العاطفة التي تجعلك، يا أخي السوري، تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد يفقد حياته هي هي الأمر الوحيد الذي يجعلك حرّياً بنور النهار وهدوء اللّيل.

وإن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو هو الحلقة الذهبيّة التي تصل ما فيك من البشريّة بما فوق البشريّة.

ـ العواصف ـ

من قصيدة «بالأمسِ»

كـانَ لـي بـالأمـسِ قَـلـبٌ فَـقَـضَـى ... وأراحَ الـنَّـاسَ مـنـهُ واسـتـراحْ
ذاكَ عَـهـدٌ مـن حَـيـاتِـي قـد مـضَـى ... بـيـنَ تَـشـبـيـبٍ وشـكـوَى ونـواحْ
إنّـمـا الـحـبّ كـنَـجـمٍ فـي الـفَـضـا ... نُـورُهُ يُـمـحَـى بـأنـوارِ الـصّـبـاحْ
وسـرورُ الـحـبّ وهـمٌ لا يَـطـولْ ... وجـمـالُ الـحـبّ ظـلٌّ لا يـقـيـمْ
وعـهـودُ الـحـبّ أحـلامٌ تَـزُولْ ... عـنـدَمـا يَـسـتَـيـقـظُ الـعـقـلُ الـسّـلـيـمْ

❁ ❁ ❁

كم سـهِـرْتُ الـلّـيـل والـشّـوْق معي ... سـاهـر أرقُـبـهُ كَـي لا أنَـامْ
وخـيَـالُ الـوَجـدِ يـحـمـي مَـضْـجَـعي ... قـائـلاً: «لا تـدنُ! فـالـنـوم حـرامْ»
وسـقـامـي هـامِـسٌ فـي مَـسـمـعي: ... «من يريد الوَصل لا يشكو السقامْ»
تـلـك أيّـامٌ تَـقَـضّـتْ، فـابـشـري ... يـا عـيُـونـي، بـلـقـا طـيـفِ الـكَـرَى
واحـذري، يـا نـفـس، ألاّ تـذكـري ... ذلـكَ الـعَـهـد ومـا فـيـهِ جـرَى

❁ ❁ ❁

كـنـتُ إنْ هَـبّـتْ نُـسَـيْـمَـات الـسّـحَـرْ ... أتـلـوّى راقـصـاً مِـنْ مـرحـي
وإذا مـا سـكَـبَ الـغـيـمُ الـمَـطَـرْ ... خـلـتُـهُ الـرّاحَ فـأمـلا قـدَحـي
وإذا الـبَـدْرُ عـلـى الأفـقِ ظَـهَـرْ ... وهي قربي صحتُ: «هلاّ يستحي»
كـلّ هـذا كـانَ بـالأمـسِ، ومـا ... كـان بـالأمـسِ تَـوَلّـى كـالـضّـبـابْ
ومَـحـا الـسّـلـوانُ مـاضـيّ كـمَـا ... تـفـرطُ الأنـفـاسُ عـقـداً مـن حـبـابْ

ـ البدائع والطرائف ـ

ميخائيل نعيمة

أنت الإنسانية

أنت الإنسانيّة بكاملها.

أنت ألفُها وياؤها. منك تتفجّر ينابيعها. وإليك تجري. وفيك تصبّ.

أنت حاكمها ومحكومها. وظالمها ومظلومها. وهادمها ومهدومها.

أنت واهبها وموهوبها. وناكبها ومنكوبها. وصالبها ومصلوبها.

أنت فقيرها وغنيها. وضعيفها وقويها. وظاهرها وخفيها.

أنت جلاّدها ومجلودها. وناقدها ومنقودها. وحاسدها ومحسدوها.

أنت رفيعها وخسيسها. وأثيمها وقدّيسها. وملاكها وإبليسها.

أنت ابن كلّ أبٍ وأمّ. وأبو كل أخ وأخت. وأنا كائناً من كنت، لا مهرب لي منك. ولا لَك مني. لأنك أنا. وأنا أنت وكلانا الإنسانيّة بأسرها.

لولاك لما كنتُ كما أنا. ولولاي لما كنتَ كما أنت.

ولولانا لما كان سوانا كما هو.

لولا الذين سبقونا لما كنّا، ولولانا لما كان في رحم الزمان إنسان.

أفي قلب جارك سعادة؟ ـ ألا فاغتبط بسعادته لأن في نسيجها خيطاً من نسج روحك. وما همّك أرأت عين جارك ذلك الخيط أم لم ترَه. فالعين التي ترى كلّ شيء تراه.

أفي قلب جارك حرقة؟ ـ فليحترق قلبك بها لأن في نارها شرارةً من موقد بغضك وإهمالك.

أفي عين جارك دمعة؟ ـ فلتدمع بها عينك لأن فيها ذرّة من ملح قساوتك.

أعلى وجه جارك بسمة؟ ـ فليبسم لها وجهك لأن في حلاوتها شعاعاً من نور محبتك.

أجارك في السجن لجريمة اقترفها؟ ـ ألا فأرسل بعضاً من قلبك معه إلى السجن لأنّك شريكه في جريمته وإن لم تحاكمك السلطة المشروعة بشرائِعها ولم يقضِ بسجنك رجل مثلك.

❀ ❀ ❀

أمس رأيتك ترقص وتصيح في الناس: «صفقوا! صفّقوا!» ألست ترى أن الحياة الجذلة فيك لا ترقص إلاّ إذا صفّق لها جذل الحياة في سواك. فما بالك لا تصفّق عندما يرقص الغير؟.

أمس سمعتك تشكو وتنوح: «اسمعوني أيها الناس. أنصفوني أيها الناس. فأنا مظلوم».

وممّن تودّ أن ينصفك الناس إلاّ من أنفسهم؟ فإذا كنت تشكو الناس للناس فعلامَ لا تصغي لشكواهم منك وتنصفهم من نفسك؟.

أمس رأيتك تحصي أرباحك. وتربّت نفسك معجباً بدهائك وما سمعتك تقول: «هذا ما أكسبنيه الناس». واليوم رأيتك تحسب خسائرك لاعناً دهاء غيرك. وسمعتك تقول: «هذا ما سلبنيه الناس». أوَ لا تخجل من أن تكون في الحياة شريكاً «مضارباً»؟.

أنت الإنسانيّة بكاملها عرفت ذلك أم جهلته. وأنا صورتك ومثالك. فأين تهرب مني إلاّ إذا هربتَ من نفسك؟

وإن أنت هربت من نفسك ـ فمن أنت؟

ـ المراحل ـ

من الفصل الثالث والثلاثون

في الليل - سيد المنشدين

مرداد: في هدأة هذا الليل يودّ مرداد أن يسمع وإياكم أناشيد الليل. أزعوا الليل سمعكم. فالليل لا شكّ سيّد المنشدين. من شقوق الماضي السحيق، ومن ثكنات المستقبل القصي؛ من قباب السماء ومن أحشاء الأرض تتدفق أصوات الليل أمواجاً متتالية تغمر الكون أدناه وأقصاه. وإذ تمرّ بآذانكم تدور من حولها طالبة الدخول. ألا انزعوا الأوقار من آذانكم كيما يتاح لكم أن تسمعوا.

إنما الليل ساحر يجلو بخوارق سحره كل ما يغشّيه النهار الصاخب بلهوه وعبثه. أما ترون إلى القمر والكواكب كيف تحتجب بوهج النهار فلا يميط حجابَها إلا الليل؟ أم لا ترون إلى الأصوات التي يخنقها النهار بضوضائه كيف تُبعث حيةً على أوتار الليل النشوان بألحان السكينة؟ حتى الأعشاب تنشد أحلامها في نشيد الليل.

اسمعوا الأفلاك في دورانها ترنّم تهويدة السرير.

للطفل العملاق الهاجع في سرير من الرمال الغوّارة الغدّارة.

بل الملك المتدثّر بأسمال الصعاليك.

بل البرق المصفَّد بالحديد.

بل الإله المُقمَّط بالقُمُط.

واسمعوا الأرض تعاني في آنٍ أوجاع المخاض

وتُرضع البنين وتنميهم وتزوجهم ثم تدفنهم.

ففي الغابات تزمجر الضواري مترصدةً فريسة، أو منقضة على فريسة، أو ممزِّقة تمزيق الفريسة.

والدبّابات تدبّ في سبيلها.

والهوامّ تطنّ أناشيدها السريّة.

والعصافير الغافية على الأفنان تردّد في أحلامها أقاصيص المروج وأغاني الجداول.

وكل ما في الغاب من شجر وأدغال، ومن جماد ومتحرك، يرشف الحياة بأكواب الموت.

من كل قنة ومن كل واد،

من صدور الصحارى ومن قعور البحار،

من الفضاء ومن تحت التراب،

ترتفع أصوات الليل متحدّية الإنسان ـ ذلك الإله المحجَّب بالزمان والمكان ـ أن ينزع عنه حجابه.

اسمعوا أُمّهات العالم كيف يُعْوِلْنَ ويولولن.

وآباء العالم كيف يئنّون ويلهثون.

اسمعوا أبناءَهم وبناتهم يَغْدون من المدفع وإلى المدفع مبكتين الله، لاعنين القدر.

متظاهرين بالمحبة ونافثين البغضاء.

شاربين الحماسة لترشح من عروقهم جبناً وخوفاً.

هارقين نجيعهم على النيران المشبوبة من حولهم والزاحفة حثيثاً عليهم زحفَ الحمم من البركان.

اسمعوا أمعاءهم الجافة تتقطّع،

وأجفانهم المقرحة ترفّ رفّة البله المذعور،

وأناملهم الذاوية تفتش على غير هدى عن جيف آمالهم،
وقلوبهم المفجوعة تتمدّد ثم تتفطر أكداساً فوق أكداس.
اسمعوا قعقعة الآلات الجهنميّة.
ثم اسمعوا المدن العاتية تنهار إلى الحضيض،
والأبراج الشامخة تدقّ بأيديها دقات حزنها،
ومعالم الماضي تتخبّط في برك من الدماء والأوحال.
اسمعوا صلاة البارّ تمتزج بفحيح الفجور،
وتمتمة الطفل الطهور تتزاوج مع نميمة اللآمة،
وبسمة العذراء الخجول تغرّد مع كيد البغيّ،
ووجد الشجاع المتوهج يدندن خواطر الوغد والجبان،
في كل خيمة لكل عشيرة،
وفي كل بيت لكل أمّة،
يقرع الليل للإنسان طبل القتال.
غير أن الليل إذ يرنّم تهويدة السرير للإنسان،
وإذ يقرع الطبل للقتال،
يعود فيسكب كل ذلك بسحره الفائق الإدراك
في نشيد واحد أدقّ وأرقّ من أن تستوعبه الأذن.
هو نشيد سمَتْ نبراته، وجلّت وقفاته،
وبَعُد قراره، وفاضت حلاوته إلى حدّ أنّ أعذب ما تنشده الملائكة
ليست إزاءه سوى ثرثرة وجلبة.
ذلك هو نشيد الإنسان المتغلّب.
إن الجبال المثقلة بالنعاس في أحضان الليل،

والفيافي الغارقة في لجج من الذكريات،

والبحار الماشية أبداً في نومها،

والدراري الهائمة في فضائها،

والساكنين في مدن الأموات،

والثالوث الأقدس مع إرادته الكلية،

كل هذه وكل هؤلاء يبتهجون بأن يحيّوا الإنسان المتغلّب،

وأن ينشدوا له نشيد الغلبة.

فيا لطوبَى السامعين والمستوعبين!

يا لطوبَى مَن إذا ما لفّهم الليل بعزلته كانوا كالليل هدوءاً وعمقاً واتساعاً.

فما صفعتهم في الظلام آثام اقترفوها في الظلام،

ولا حرقت أجفانَهم عبراتٌ سكبتها عيونٌ غير عيونهم وكانوا السبب في سكبها،

ولا شعروا بأيديهم يتأكلها حكاك الأذيّة والطمع،

ولا بآذانهم يحاصرها فحيح أهوائهم،

ولا لدغت أفكارُهم أفكارَهم،

ولا كانت قلوبهم مباءة لكل أصناف الهموم المغيرة بغير انقطاع من كل نخروب من نخاريب الزمان،

ولا أدمغتهم تربة تحفر فيها المخاوفُ الأنفاق والخنادق، ـ الذين في مستطاعهم أن يخاطبوا الليل بكل جرأة قائلين: «ألا أعْلِنّا للنّهار» وأن يقولوا للنهار: «ألا أعْلِنّا لليل».

أجل طوباهم مَثنى وثُلاثَ أولئك الذين إذا ما لفّهم الليل بعزلته أحسّوا ذواتهم مدوزنين ومطمئنين وغير متناهين كالليل.

فلهم وحدهم ينشد الليل نشيد المتغلبين.

إذا شئتم أن تجابهوا مخرقات النهار ودسائسه ومثالمه،

وجباهكم عالية لامعة، وأحداقكم تشعّ ثقةً وإيماناً، فأسرعوا إلى كسب صداقة الليل.

صادقوا الليل.

اغسلوا قلوبكم بدمائكم وأودعوها قلب الليل.

ثم ضعوا في راحة الليل حنينكم عارياً من كل زخرف وغش،

ثم اسفحوا على أقدامه دماء كل مطامحكم ما خلا مطمح الوصول إلى الانعتاق بواسطة الفهم المقدس.

وعندها تصبحون في مأمن من حمم النهار وسهامه.

ويشهد لكم الليل أمام الناس بأنّكم حقّاً متغلّبون.

إذ ذاك، وإن تقاذفتكم أيدي نهارات محمومة،

وغمرتكم بدجنّاتها ليالٍ عمياء،

فوجدتموكم على مفارق طرق العمال، منبوذين منسيين،

ولا من يدٍ أو من علامةٍ تدلكم على الطريق،

بقيتم، مع ذلك، أقوى من أي إنسان وأي ظرف،

وقط ما خامركم شكٌ في أن الأيام والليالي، والناس وغير الناس، سيفتشون عنكم في النهاية،

ويأتونكم صاغرين ومتوسّلين لتقودوهم إلى المحجّة.

ذلك لأنّكم نلتم ثقة الليل. ومن كانت له ثقة الليل كان في قدرته أن يقود النهار الآتي.

أرْعوا سمعكم قلب الليل. ففيه ينبض قلب الإنسان المتغلّب.

لو كان في عيني دموع لأرقتها في هذا الليل أمام كلّ نجم وكل ذرة

تراب، وكل جدول يعدو وجدجد يشدو، وكل بنفسجة تنشر روحها العطر على كف النسيم، وكلّ هضبة ووهدة، وكل عشبة خضراء ـ أجل لأرقتها أمام كلّ ما في هذا الليل من السلام والجمال كفّارة عن عقوق الناس وجهلهم البربري.

فالناس، وهم أرقّاء الفلس الأذلاّء، لاهون في خدمة مولاهم عن سماع أي صوت والامتثال لأيّ إرادة إلاّ صوت الفلس وإرادته.

ويا لخدمة مولى الناس ما أشقّها وما أفظعها من خدمة! فهي تقضي على الناس بتحويل عالمهم إلى مسلخ هم فيه القصّابون والمقصَّبون. هكذا، وقد سكروا بالدم، يذبح الناسُ الناسَ موقنين أن الذابح يرث حصّة المذبوح في كلّ بركات الأرض وهبات السماء.

يا لتعسهم ويا لغرورهم!

أسمعتم يوماً بذئبٍ افترس ذئباً فأصبح حَمَلاً؟

أم بأفعى سحقت أفعى وابتلعتها فصارت حمامة؟

أم بإنسان قتل إنساناً فورث خيراته دون ويلاته؟

أم بأُذن وقَرَت شقيقتها فغدت من بعدها أرهف سمعاً وأوفر استمتاعاً بحلاوة مغاني الحياة؟

أم بعين سملت رفيقتها فباتت أجلى من ذي قبل وأقدر على استجلاء جمالات الوجود؟

أعَلى البسيطة إنسان أو جيش من الناس في مستطاعهم أن يستوعبوا خيرات ساعة واحدة سواء أكانت من الخبز والخمر، أم من النّور والسلام؟

لا تلد الأرض أكثر مما في قدرتها أن تغذّي. والسماء لا تسرق ولا تستجدي من أحدٍ قوتاً لأبنائها.

كذب القائلون للناس: إذا ما شئتم أن تشبعوا فاقتلوا وَرِثوا الذين تقتلون. ـ إذ أنّى لِمَن ما درى كيف ينعم ويسمن بمحبة الناس، وبلبن الأرض وشهدها، وبعطف السماء وحنانها، أن ينعم ويسمن بدموع الناس ودمائهم وحسراتهم؟.

كذب القائلون للناس: كل أُمّة لذاتها. ـ كيف لأمّ الأربع والأربعين أن تتقدّم قيد قيراط إذا راحت كل رجل من أرجلها تمشي في وجهة معاكسة لرفيقاتها أو تعمل على إتلاف رفيقاتها؟ أليست الإنسانيّة أمّ أربع وأربعين هائلة وكل أمّة بمثابة رجل من أرجلها؟.

كذب القائلون للناس: أن تَحكُموا شرف. وأن تُحكَموا عار. ـ أليس أنّ سائق الحمار مَقُود بذيل حماره؟ أليس السجّان أسير سجينه؟ حقّاً إنّ الحمار ليسوق قائده. والسجين لَيسجن سجّانه.

كذب القائلون للناس: السباق للسريع. والحق للقوي. ـ فالحياة ما كانت يوماً سباق عضلات وأعصاب. فكم من كسيح أو مشوّه بلغ القمة قبل الصحيح. وكم من بعوضة صرعت مصارعاً.

كذب القائلون للناس: إن الإساءة لا تمحوها إلا الإساءة. فحتى اليوم ما ولدت إساءتان حقّاً واحداً. دعوا الإساءة وشأنها. فهي كفيلة بأن تمحو ذاتها بذاتها. واعلموا أن ظلم الناس للناس هو عدل الإرادة الكلية في الناس.

لكنما الناس أغرار. فما أسرع ما يصدقون فلسفة الفلس وأعوانه الأوغاد، وما أطوعهم في ترضيتهم. أما الليل الذي ينشد لهم نشيد الانعتاق، بل الله الذي هو الانعتاق، فلا يصغون لهما ولا يحفلون بهما. فلا عجب يا رفاقي إذا هم وسموكم بسِمة الجنون والشعوذة.

لا يثقلن عليكم عقوق الناس وتهكمهم اللاذع. بل اعملوا بمحبّة فياضة وصبرٍ لا نفاد له من أجل خلاصهم من نفوسهم ومن طوفان النار والدم الذي سيدهمهم قريباً.

لقد آن الأوان للناس أن يكفّوا عن ذبح بعضهم بعضاً.

فالشمس والقمر والنجوم ما تزال منذ الأزل ترتقب العين التي ستبصرها وتفهمها؛ وكتاب الأرض الفكرَ الذي سيفك ألغازه؛ ومسالك الفضاء الأقدامَ التي ستسلكها؛ وخيط الزمان المعقّد اليدَ التي ستحلّ عقده؛ وعبير الوجود الأنفَ الذي سيتنشقه؛ ومغاور الألم المنجنيقَ الذي سيدمرها؛ ووجار الموت

الغازيَ الذي سيغزوه فيتركه خراباً؛ وخبز الفهم الفمَ الذي سيتذوقه؛ والإنسان ـ ذلكم الإله المحجَّب ـ مَن سيميط عنه حُجبه.

أجل، لقد آن الأوان للناس أن يكفّوا عن سلب الناس ونهبهم وأن يوحّدوا صفوفهم للقيام بالمهامّ الكبيرة التي تنتظرهم.

خطيرة هي تلك المهام وثقيلة. لكنما الفوز أحلى من أن يوصف، وأجلّ من أن يقدَّر. وكل ما عداه تافه وضئيل ودميم.

بلى، لقد آن الأوان. ولكن لليس للجميع. فلن يسمع هذا النداء إلا القليل. أما الباقون فلا بدّ لهم من انتظار نداء غير هذا النداء وفي فجر غير هذا الفجر.

❀ ❀ ❀

من كتاب «كرم على درب»

لكلّ كلمة أذن. ولعلّ أذنك ليست لكلماتي. فلا تتّهمني بالغموض.

❀ ❀ ❀

من مشى وظهره إلى الشمس مشى مقوداً بظلّه.

❀ ❀ ❀

قيل لمرابٍ: غداً تقوم القيامة. فصاح: واطربي! إذاً تقوم صكوكي التي ماتت بمرور الزمن.

الكبرياء والذل توأمان متلاصقان.

❀ ❀ ❀

أدخلني قلبك أيها الليل لعلّني أبصر قلب النهار.

كما في قلب الزارع كذلك في قلب السنبلة.

❀ ❀ ❀

جلس شاعر في ظلّ صخرة يرثي حظه وقد هجرته حبيبته. وكان على الصخرة شحرور يغني. فعاتبه الشاعر قائلاً:

لمن تغني وشحرورتي التي كانت تطرب لغنائك طارت من ههنا ولن تعود؟.

فأجابه الشحرور:

ولكن شحرورتي ما تزال في الوكر والحمدلله.

❀ ❀ ❀

كيف تقول لي «وداعاً»؟ ألعلّك ذاهب أبعد من الله؟.

❀ ❀ ❀

الآن

غداً أردّ هباتِ الناس للناسِ
وعن غناهمُ أستغني بإفلاسي
وأستردّ رهوناً لي بذمّتهم
فقد رهنت لهم فكري وإحساسي
ورحت أتجر في أسواق كسبهم
فما كسبت سوى هم ووسواس
وكم فتحتُ لهم قلبي فما لبثوا
أن نصّبوا بَغلَهم في قدس أقداسي

❀ ❀ ❀

غداً أُعيد بقايا الطّين للطينِ
وأُطلق الروح من سجنِ التخامينِ
وأترك الموت للموتى ومَن وَلَدوا
والخير والشرّ للدّنيا وللدين
وألبس العري درعاً لا تحطّمه
أيدي الملائك أو أيدي الشياطين
فلا تروّعني نار الجحيم ولا
مجالس الحور في الفردوس تغريني

❀ ❀ ❀

غداً أجوز حدود السمعِ والبصرِ
فأدرك المبتدا المكنون في خبري

فـــلا كـــواكـــب إلا كـــان لـــي سُـــبُـــلٌ

فـــيـــهـــا، ولا تـــربـــة إلا بـــهـــا أثـــري

لـــي فـــي الـــقـــضـــاء قـــضـــاءٌ والـــمـــنـــون مـــنًـــى

وفـــي مُـــلاحـــمَـــة الأقـــدار لـــي قـــدَري

❀ ❀ ❀

غـــداً؟ . . . ولا أمـــس لـــي حـــتـــى أقـــول غـــداً

فَـــلـــتـــمـــحـــهـــا «الآن» مـــن نـــطـــقـــي ومـــن فـــكـــري

ـ همس الجفون ـ

إيليا أبو ماضي

روحي فداكِ

لمّا رأيت الورد في خدّيكِ
وشقائق النعمان في شفتيكِ
وعلى جبينك مثل قطرات الندى
والنرجس الوسنان في عينيك
ونشقت من فوديك ندّاً عاطراً
لمّا مشت كفّاك في فوديك
ورأيت رأسك بالأقاح متوّجاً
والفلّ طاقات على نهديك
وسمعت حولك همس نسمات الصبا
عند الصباح تهزّ من عطفيك
أيقنت أنك جنة خلابة
فحننت من بعد المشيب إليك
ولذاك قد صيّرت قلبي نحلة
يا جنّتي حتى تحوم عليك
روحي فداؤك إنها لو لم تكن
في راحتيك هوت على قدميك . . .

ـ تبر وتراب ـ

وطن النجوم

وطنَ النجوم.. أنا هنا   حدّق.. أتذكر من أنا؟
ألمحت في الماضي البعيد   فتًى غريراً أرعنا
جذلان يمرح في حقولك   كالنسيم مدندنا
يتسلّق الأشجار لا ضجراً   يحسّ ولا ونى
ويعود بالأغصان يبريها   سيوفاً أو قنا
ويخوض في وحل الشتا   متهلّلاً متيمّنا
لا يتّقي شرّ العيون   ولا يخاف الألسنا

❀ ❀ ❀

أنا ذلك الولد الذي   دنياه كانت ههنا!
أنا من مياهك قطرة   فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرّة   ماجت مواكب من منى
أنا من طيورك بلبل   غنّى بمجدك فاغتنى
حمل الطلاقة والبشاشة   من ربوعك للدّنى
كم عانقت روحي رباك   وصفّقت في المنحنى؟
للأرز يهزأ بالرياح   وبالدهور وبالفنا
للبحر ينشره بنوك   حضارة وتمدّنا
للّيل فيك مصلّياً   للصبح فيك مؤذّنا
للشمس تبطىء في وداع   ذراك كيلا تحزنا
للبدر في نيسان يكحل   بالضياء الأعينا
فيذوب في حدق المهى   سحراً لطيفاً ليّنا
للحقل يرتجل الروائع   زنبقاً أو سوسنا
للعشب أثقله الندى   للغصن أثقله الجنى

عاش الجمال مشرّداً … في الأرض ينشد مسكنا
حتى انكشفت له فألقى … رحله وتوطّنا
واستعرض الفن الجبال … فكنت أنت الأحسنا
لله سرّ فيك يا … لبنان لم يعلن لنا
خلق النجوم وخاف أن … تغوي العقول وتفتنا
فأعار أرزك مجده … وجلاله كي نؤمنا
زعموا سلوتك.. ليتهم … نسبوا إليّ الممكنا
فالمرء قد ينسى المسيء … المفتري والمحسنا
ومرارة الفقر المذلّ … بلى، ولذّات الغنى
لكنه مهما سلا … هيهات يسلو الموطنا

- تبر وتراب -

ابتسم

قال: «السماءُ كئيبةٌ!» وتجهّما
قلت ابتسمْ يكفي التجهّم في السما!
قال: الصّبا ولّى! فقلت له: ابتسم
لن يُرجعَ الأسفُ الصّبا المتصرّما!
قال: التي كانت سمائي في الهوى
صارت لنفسي في الغرام جهنّما
خانتْ عهودي بعدما ملّكتُها
قلبي، فكيف أطيق أن أتبسّما؟
قلتُ: ابتسم واطرب فلو قارنتها
قضّيت عمرك كلّه متألما!
قال: التجارةُ في صراعٍ هائلٍ
مثلُ المسافر كاد يقتله الظما
أو غادةٍ مسلولةٍ محتاجةٍ
لدم وتنفث، كلما لهثت، دما!
قلت: ابتسم ما أنت جالب دائها
وشفائها، فإذا ابتسمت فربما..
أيكونُ غيرك مجرماً وتبيتُ في
وجل كأنك أنتَ صرت المجرما؟

❀ ❀ ❀

قال: العدى حولي علتْ صيحاتهم
أأُسَرُّ والأعداءُ حولي في الحمى؟
قلت: ابتسم، لم يطلبوك بذمّهم
لو لم تكن منهم أجلّ وأعظما!

❀ ❀ ❀

قال: المواسم قد بدت أعلامها
وتعرضت لي في الملابس والدُمى
وعليّ للأحباب فرضٌ لازمٌ
لكن كفّي ليس تملكُ درهما
قلت: ابتسم، يكفيك أنك لم تزل
حياً ولست من الأحبّة مُعدما!

❀ ❀ ❀

قال: الليالي جرّعتني علقماً
قلت: ابتسم ولئن جرعتَ العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنماً
طرح الكآبة جانباً وترنّما
أتُراك تغنُم بالتبرّم درهماً
أم أنت تخسرُ بالبشاشة مغنما؟
يا صاح، لا خطر على شفتيك أن
تتثلّما، والوجه أن يتحطّما
فاضحك فإن الشُّهب تضحك والدجى
متلاطمٌ، ولذا نحبُّ الأنجما!
قال: البشاشة ليس تسعد كائناً
يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما
قلت: ابتسم ما دام بينك والردى
شبرٌ، فإنك بعدُ لن تتبسّما

من قصيدة «الطلاسم»

جئت لا أعلم من أين، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجود
هل أنا حرٌ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنى أنني أدري ولكن
لست أدري

وطريقي ما طريقي؟ أطويلٌ أم قصير؟
هل أنا أصعدُ أم أهبط وأغور
أأنا السائرُ في الدرب أم الدربُ يسير
أم كلانا واقفٌ والدهر يجري؟
لست أدري

ليتَ شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتراني كنتُ أدري أنني فيه دفين
وبأني سوف أبدو وبأني سأكون
أم تراني كنتُ لا أدرك شيئاً؟ . . .
لستُ أدري

❀ ❀ ❀

أتــرانــي قــبــلــمــا أصــبــحــتُ إنــســانــاً ســـويّــا
كــنــتُ مــحــواً أو مــحــالاً أم تــرانــي كــنــتُ شــيّــاً
ألــهــذا الــلــغــز حــلٌ؟ أم ســيــبــقــى أبــديًّــا
لــســتُ أدري. . ولــمــاذا لــســتُ أدري؟. .
لستُ أدري

ـ الجداول ـ

رشيد أيوب

هل يا ترى نعود

هل يا ترى نعودْ   إليك يا لبنانْ
فتصدق الوعودْ   ويسمح الزمانْ
ونقطف العنقودْ   منوّع الألوانْ
هل يا ترى نعودْ   إليك يا لبنانْ

❀ ❀ ❀

ما أحسن السهرْ   في خلوة الكرومْ
وبيننا القمرْ   وقربنا النجومْ
فهذه الصورْ   تمرّ كالغيومْ
هل يا ترى نعودْ   إليك يا لبنانْ

❀ ❀ ❀

زقزقة العصفورْ   ورعشة الأغصانْ
حتى ترى الصخورْ   نديّة الألوانْ
وعتمة الديجورْ   تشتقها العينانْ
هل يا ترى نعودْ   إليك يا لبنانْ

❀ ❀ ❀

كم سحت في المعمورْ   ما غرّني منظرْ
فبلدي المهجورْ   وأرزي الأخضرْ
أحلى من القصورْ   والذهب الأصفرْ

هل يا ترى نعود
إليك يا لبنان

أمين الريحاني

مبدئي

لي منية غير الشهرة والمجد، غير الثروة والغنى، غير السرور والسعادة. منيتي الأولى أن أكون بسيطاً في أعمالي. صادقاً في أقوالي مستقيماً في آرائي طبيعياً في تصرفي، وبكلمة أن أكون نظيف العقل والقلب والجسم، بعيداً عن التصنع والصلف والزخرفة، بعيداً عن الخوف والجبانة والخجل، بعيداً عن الرياء والتدليس والكذب. أريد أن أتقبّل كل ما يقابلني من الصعوبات في طريق الحياة بثبات وصبر.

أود أن أعيش دون أن أبغض، وأحب دون أن أغار، وأرتفع دون أن أترفع، وأتقدم دون أؤخر من هم دوني أو أحسد من هم فوقي. هذه هي سنتي، وللغير أن يتخذوا لهم سنة توافقهم. للغير أن يتخذوا نفس الخطة إذا شاؤوا أو استطاعوا. ليس من شأني أن أتدخل في شؤونهم أو أن أعظهم متهدداً أو أرشدهم منذراً.

عليَّ أن أعيش صادقاً مسالماً مستقيماً، وعليهم أن يعيشوا كما يطيب لهم. ولكن الواجبات التي أطلبها لنفسي هي واجبة لكل فرد على الإطلاق في كل مكان. وكما أنني أعترف للغير بهذه الحقوق والواجبات أحب أن يعترف لي الغير بها أيضاً.

لا أريد أن أنصح متى كانت نصيحتي غير مطلوبة، ولا أن أساعد متى كانت خدمتي غير لازمة. وإن كنت قادراً على إسعاف أحد أفعل ذلك بطريقة تدفع طالب الإسعاف إلى العمل فيسعف نفسه. وإن كان فيَّ ما يلهم الناس إلى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الترقي العقلي الروحي، أريد أن أظهره بالمثل والإشارة والاستنتاج وليس بالتبشير والتهديد والتأمر.

أحب أن تشعشع حياتي ولا أحبها أن تفرقع.

ـ التطرف والإصلاح ـ

من قصيدة «النّجوىٰ»

يا ذا الجلال الأزلي، ألحفني بشيء من جلالك
يا ذا النور الدائم، أمددني بقبس من نورك
يا ذا القوة غير المتناهية، ابعث منها في قواي

❀ ❀ ❀

أنا مبدأ الحياة الأزلية، وعين الحب والقوة
وإني حي فيك، عليم بنجاويك
أنت الحياة بأجمعها، أولاً وآخراً، وإني لأحيا بك
أنا مصدر الإدراك البشري
وسأزيدك إدراكاً بأنك جزءٌ مني
ساعدني اللهمّ لأجمع قواي الروحية، والعقلية،
والجسدية في سبيل الحق والحب والحكمة
إني أيها الإنسان مصيخ إليك، مطلق يديك، منعم عليك
أيها الينبوع السرمدي
المنبعثة منه أنوار الحب
المتدفقة منه مياه الحياة والعافية
إني أفتح لك عقلي وقلبي، وأبسط أمامك روحي
فلا تحرمني فيض مكارمك، ولا تبعدني عن ينابيعك . . .

ـ هتاف الأودية ـ

فوزي المعلوف

من ملحمة «على بساط الريح»

ملك في الهواء

ـ ١ ـ

فـــي عُـــبـــاب الـــفـــضـــاءِ فـــوقَ غـــيـــومـــه
فوق نسره
ونجمته
حيثُ بَثَّ الهوى بثغر نسيمه
كلّ عطره
ورقّته
موطنُ الشاعر المحلّق ـ منذ
البدء ـ لكن بروحه لا بجسمه
أنزلته فيه عروسُ قوافيه
بعيداً عنِ الوجود وظلمه
ملكٌ قبّةُ السماءِ له قصرٌ
وقلبُ الأثَير مسرحُ حكمه
ضاربٌ في الفضاء موكبه النور
وأتباعه عرائس حلمه

مُلْكهُ ركنه الهواء وما أقواه
ركناً قام الخلودُ بدعمه
عرشه سدّة السحاب عليها
نفض الليل كلّ رهبةِ رسمه
تاجُه هالة ينصد في فضّتها
الأفق بَذْره قرب نجمه
والدجى طيلسانه فاح كافور
دراريه فوقَ عنبرِ فحمه
والثريّا في كفّه صولجانٌ
درّه لمّه الصباحُ بكمّه
ملكٌ طائرٌ بغير جناحَين
بأمر الخيال يقضي وباسمه
يا جناحَ الخيال أقوى جناح
أنت يُلوى ظهرُ الرياح لصدمه
ليت شعري ما الشاعر ابنٌ لهذي
الأرض إلاّ بلحمه وبعظمه
فإذا اختار هجرها برضاهُ
أفما جاءَها مقوداً برغمه
هو منها وليسَ منها فما زال
غريباً ما بينَ أبناءِ أُمّه

روح الشاعر

ـ ٢ ـ

أيّ روح في بردة الشعراء
رفعتهم

على الهواء
أبعدتهم عن عالم الأحياء
قرّبتهم
من السماء
. . . .
أنتِ يا روحهم من نور ذرّات
أضاءت في الكونِ في عالَميه
تصل الأرض والسَّماء بنهر
غمرَ الحسنُ والهوى ضفَّتيه
لستِ من عالم التراب وإن كنتِ
تقمّصتِ بالترابِ عليه
أنت من عالم بعيد عن الأَرض
يفيض الجلالُ عن جانبيَه
نسمة الشعر أنتِ فيه تبثِّين
أريجَ الشعور في بردتَيه

هو فردوسك السحيق فلا الإثم
ولا الشرُّ يبلغانِ إليه
وفتى الشعر فيه يستنزل الوحي
بياناً يجثو الخلودُ لديه
حافراً باللظى على مصحفِ
الأُفق سطوراً تُنير في دفَّتيه
ما احمرار الأصيل غير لهيب
شعّ من قلبه على مقلتَيه

وركامُ السحاب غير دخان
نفثته الهمومُ مِن شفتيه
ما أنينُ الرياحِ غير زفير
نزعته الرياحُ من رئتَيه
ونواح الطيور غير عويل
نقلته الطيور عن أصغرَيه
ما ندى الفجر غير لؤلؤ دمع
رشفته الأزهار من محجريه
وبريق النجوم غير شظايا
كأس حبّ تحطّمت في يديه

العبد

ـ ٣ ـ

بينَ روحي، وبين جسمي الأسيرِ
كان بعد
ذقت مرَّه!
أنا في الأرض، وهي فوق الأثير
أنا عبد
وهي حرّة!
أنا عبد الحياة والموت، أمشي
مكرّهاً من مهودها لقبوره!
عبد ما ضمّت الشرائع من جورٍ
يخطّ القويّ كلّ سطوره
بيراع دمُ الضعيف له حبر،

ونوحُ المظلوم صوت صريره

أنا عبد القضاء، تملأ نفسي

رهبةٌ من بشيره ونذيره!

عبدُ عصر من التمدّن، نلهو

ضلّة عن لبابه بقشوره

عبدُ مالي، أحظى به بعد جهدٍ

فإذا بي أنوءُ من ثقل نيره!

عبد اسمي، ذوَّبتُ روحي وجسمي

طمعاً في خلوده ونشوره!

عبدُ حبّي، أنزلْته في فؤادي

فكوى أضلعي بنار سعيره!

أنا في قبضةِ العبوديّة العمياء،

أعمى مسيَّرٌ بغروره!

إنّ جسمي عبدٌ لعقلي، وعقلي

عبدُ قلبي، والقلب عبد شعوره

وشعوري عبدٌ لحسّي وحسّي

هو عبد الجمال، يحيا بنوره!

كلّ ما بي في الكون أعمى ومنقاد

على رغمه لأعمى نظيره

غير روحي فالشعر فكّ جناحَيها

فطارت في الجوّ فوق نسوره

تنتحي عالم الخلود، لتحيا

حرّة بين روضه وغديره!

حلم فحقيقة

ـ ٤ ـ

يا طيورَ السماءِ في الريحِ روحي
بيَ جريا
على الجلَد
وبجسمي طيري إلى حيث روحي
فيه تحيا
بلا جَسد!
هو حلم مجنّح، رافق الشاعر
يطوي الأجيال جيلاً فجيلاً
خلعت يقظةُ العقول جناحَين
عليه يحيران العقولا
ما هُما من خرافةٍ وخيالٍ
بل هما من حقيقة وهيولى
صَعّد الطّرف في الأثير تجذْني
قاطعاً في الأثير ميلاً فميلاً
خبباً تارة، وطوراً وئيداً
صُعُداً مرّة، وأُخرى نزولا
فوق طيّارة على صهواتِ الريح
راحت تروّض المستحيلا
هي طير من الجماد كأنّ
الجنّ في صدرها تَحثّ خيولا
حمحمت تضربُ الرياح بنعليها
فشقّت إلى السَّماءِ سبيلا

ثمّ مدّت إلى النجوم جناحَين
وجرّت على السحابِ ذيولا
غرقت في الأصيل حيناً، وعامت
بعد حينٍ تعلو قليلاً قليلا
ترتدي من دخانها بردة الليل
وتُلقي عن منكبيها الأصيلا
وعليها من الشّرار نجوم
عقدت حول رأسها إكليلا
حلّقي، حلّقي، وأَلقي على الأفلاك
رعباً وروعةً وفضولا
واشهدي في الطيور كرّاً وفرّا
واسمعي في النجوم قالاً وقيلا!

بين الطيور

- ٥ -

قال نسرٌ لآخر: «أيّ طيرٍ
هو هذا؟
ومَن رفاقه؟
إن يكن قادماً إلينا لخيرٍ
فلماذا
علا زعاقُه؟
يا لَه طائراً بصورة شيطان
يبثّ اللهيبَ بركانُ صدره
أَهوْ منّا؟ لا لا فلم أر جبّاراً

كهذا في الجوّ ما بينَ طيره
إنّ قلبي لموجسٌ منه شرّاً
رحْ بنا نجتلي حقيقة أمره»
ـ آدميٌّ هذا ـ أجاب أخوه ـ
جاءَ يستعمر الأثير بأسره
كرةُ الأرض عن مطامعه ضاقت
فحطّت هنا مطامح فكره
نحن لم نهجرِ البسيطة، إلاّ
هرباً منه واجتناباً لشرّه
قُمْ بِنا نحشدِ الطيور وتنقضَّ
عليه، نجزيه من مثل غدره!»
ودوت في الأثير صيحة حرب
ملأته بنسره وبصقره
هو حشد أثار ضربُ خوافيه
غبارَ السَّحاب يعمى بذرّه
وإذا بي ما بين أجنحة سودٍ
على الأفق حجّبت وجهَ بدره
طوّقتني بكلّ فاغر شدقٍ
صامدٍ لي بمخلبيه وظفره!
لا تخافي يا طيرُ ما أنا إلاّ
شاعرٌ تطرب الطيور لشعره
زارك اليوم متعباً يَنشدُ الراحة
في هدأة السكونِ وسحره
فرّ عن أرضه فراركِ عنها

من أذى أهلها وتنكيل دهره!

رمز الألم

- ٦ -

أُنظريه يمشي وفي خطُواته
نزواتٌ
من الألم
عاثر الجدّ، جدٌّ تحدو بذاته
نزعاتٌ
إلى العدم
غمرته الأحلامُ بالشفق الورديّ
يُغريه بالمنى تعليلا
وتلاشت حُلْماً فحلماً إلى اللاشيء
تمشي به قليلاً قللا
هو في ميعة الشّباب ولو حدّقتِ
فيه أبصرتِ، شيخاً هزيلا
بقوامٍ كأنّ قاصمةَ الظّهر
أناخَت عليه حملاً ثقيلاً
وجبينٍ ألقت عليه شجونُ
النفس ظلاّ من العبوس ظليلا
فهو لا يعرفُ التبسُّم إلاّ -
عندما يستعيد حلماً جميلاً!
ألِف اليأسَ قلبُه، فهو واليأس
يحاكي بثينةً، وجميلا

وإذا اليأس صدّ عنه قليلاً
راح يبكي على نَواهُ طويلا!
وإذا ما النسيمُ مرّ عليه
فعليلٌ أتى يعود عليلا
حائر الطرف شارد الفكر يحكي
مدلجاً في الظلام ضلّ السبيلا
تاه في عالم الخيال، فضاعت
نفسه وهي تَنشد المستحيلا
حوّلَ الأرض عالماً علوّياً
قاطراً من وحولها سلسبيلا
ملأ العالمَ السماويّ شدوّاً
منزلاً منه للورى إنجيلا
هاكِ عقدُ النجوم بين يديه
صار بعد انفراطه إكليلا

حنين المهاجر

وأطول أشواقي إلى الوادي وادي الهوى والحسن والشعرِ
ملهى صباي ومهد ميلادي وعسى يكون بحضنه قبري

والكرم يكسوه سنى الشفقِ ألوانَه ويشعّ بالعنبِ
فترى به صفرة الورق عسلاً بلؤلؤةٍ على ذهبِ

❀ ❀ ❀

والماء تشعر حين تشربُه بقوىً تدبّ به إلى جسدكْ
ليس الندى والفجر يسكبُه للزهر، أعذب منه في كبدكْ

❀ ❀ ❀

وإلى الربى والليل كلّلها بسكونه المملوء بالسحْرِ
ومشى الهوى فيها فظلّلها بمواكب الأحلام والشعرِ

❀ ❀ ❀

والنهر ما أحلاه ينتقلُ في حضن حصباء من الدّررِ
تهوي عليه الشهب تغتسلُ في الليل، والأنوار في السّحَرِ

❀ ❀ ❀

واهاً على الماضي وأيامهْ ما كان أسعدها وأقصرها
فرّت فرار لذيذ أحلامهْ لم تُبقِ لي إلاّ تذكّرها

❀ ❀ ❀

أيام أنسٍ ما أُحيلاها وأحبَّ صورتها إلى فكري
قلبي يذوب جوىً لذكراها في أضلعي، ومدامعي تجري

❀ ❀ ❀

شفيق المعلوف

أغنية الجنّ

ويحي من يشبع فيّ النهم؟
أكلّما استلقت على معصمي
روح، فقرّبت إليها فمي
تملّصت... فلم أقبّل ولم
أضمَّ إلاّ عدماً في عدمِ؟

❀ ❀ ❀

يا تعباً يحني ظهور الورى،
أحبّها أثقالك القاصمَهْ
فإن عبئاً يقصم الأظهرا
أصعب منه الراحة الدائمهْ

❀ ❀ ❀

من لي بثغرٍ لاهبٍ تنفرجْ
ثغرته عن شعلات القبَلِ؟
من لي بذي قلب خفوقٍ ألجْ
في صدره... وإن لم يختلجْ
لعاصف الموت اختلاج الشّعلِ؟

❀ ❀ ❀

يا حامل الجسم ألا اعطنيه وخذ إذا شئت خلودي ثمنْ
وشاحي الناريُّ من يشتريه؟ فإنني أبيعه بالكفن...

ويحك يا إنسان   ألقِ عصا سحرك
ذعَرت فينا الجان   فعُذنَ بالشيطان
من شرّك

❀ ❀ ❀

يا آكل الأموات   ورامق النيّرات
بالأعين الوالهة
لا تمضِ في عجبكْ   فإنما الآلهة
ليست على دربكْ   ما دام حبّ اللذات
ينحز في قلبكْ

❀ ❀ ❀

مهما صقلت حجاكْ   يظلّ مُحلَولِكْ
فليس خلف ضحاكْ   إلاّ دجى ليلِكْ

ـ من «عبقر» ـ

مي زيادة

من محاضرة عن المرأة (١٩١٤)

. . . تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم، ومن أغرب الغرائب أنّها لم تجد لها في القدم صديقاً ولا نصيراً. كانت عامّة الشعب تكرهها وتحتقرها، وليس ذلك بكثير على قوم جاهلين تحجّرت منهم القلوب وصمّت الأفهام، فهم لا يدركون شيئاً مما يتجاوز دائرتهم الصغيرة؛ لكني أرى الأمر عجيباً، بل فظيعاً، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم.

لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة إلاّ جمال جسدها، وليس في قصائدهم ما يدلّ على تلمّس آثار النفس من وراء ظواهر الجسد، وجميعهم متّفق على تسميتها: الشيطان الجميل أو ينبوع المسرّات. . . وشعراء اليونان. . . يسمّونها ببساطة كلّيّة «بليّة العالم». أمّا الفلاسفة فأكتفي بأن أذكر هنا كبيرهم أفلاطون. . . الذي قضى حياته آسفاً لأنّه ابن المرأة، وكان يصرّح بازدرائه بأمّه. . . وما علم أنّ امرأة ستعلّم الفلسفة الأفلاطونيّة الجديدة في «مدرسة الاسكندريّة» - هيبانيا ابنة تيونوس الرياضيّ الشهير - التي قتلت رجماً في شوارع الاسكندريّة في أوائل القرن الرابع، فذهبت شهيدة العلم والإخلاص والرغبة في إشهار التعاليم الأفلاطونيّة الجديدة. . . وقال بوسويه: خلقت المرأة من ضلع زائد في جنب الرجل، فلهذا السبب هي عقيمة لا ذكاء في عقلها ولا إدراك في نفسها.

لكنّ مدنيّة الأمس العرجاء التي لم تتكىء إلاّ على جنس من الجنسين هي غير مدنيّة الغد التي تبشّر بتحقيق الأماني. . . قالوا: إنّها لا تصلح إلاّ للخدمة البيتيّة والزينة الجسديّة، وها هي اليوم مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة. وكم قالوا: إنّها حيوان جميل وشيطان لطيف، وها هي ملاك كريم يحاول إفهام الرجل أنّ في الحياة عنصراً سامياً هو كل الحياة. . .

وكم قالوا: إنّها خبيثة، وإنّ الصدق والإخلاص بعيدان عنها بعد الشمال عن الجنوب، وها هي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوّهتها في أزمنة العبوديّة. وكم قالوا: إنّها متردّدة حائرة ذليلة لا تقوى على توليد فكرة ولا تحتمل المسؤولية، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة...

وكم قالوا: إنّ المعارف لم تخلق للمرأة وإنّ العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها... وقد فاتهم أنّ المرأة الراقية وحدها تعرف أنّ لها فخراً واحداً وهو أن تكون أمّاً بكلّ معنى الكلمة وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة...

صوتها يرتفع الآن آتياً من بعيد، من عمق أعمق الدهور السوداء... أيّها الرجل! لقد أذللتني فكنت ذليلاً. حرّرني لتكون حرّاً. حرّرني لتحرّر الإنسانيّة.

الأخطل الصغير

عش أنت

عش أنت، إنّي متّ بعدَكْ
وأطل إلى ما شئت صدَّكْ
ما كان ضرّك لو عدلتَ
أما رأت عيناك قدّكْ
وجعلت من جفنيّ متّكئاً
ومن عينيّ مهدكْ
ورفعتَ بي عرش الهوى
ورفعتَ فوق العرش بندكْ
وأعدت للشعراء سيّدهم...
وللعشاق عبدكْ

❀ ❀ ❀

يا من أساء بي الظنونَ،
ثلمتني وثلمت حدّكْ
إن لم يكن أدبي، فخلقك
كان أولى أن يصدّكْ...
أغضاضة يا روض إن
أنا شاقني، فشممت وردكْ
وملامة يا قطر إنْ

أنا راقني، فأممت وردكْ؟...
أنقى من الفجر الضحوكِ
فهل أعرت الفجر خدّكْ
وأرقّ من طبع النسيم
فهل خلعت عليه بردكْ
وألذّ من كأس النديم
فهل أبحت الكأس شهدكْ؟...
وحياة عينك، وَهْيَ عندي
مثلما القرآن عندكْ
ما قلب أمك، إن تفارقها
ولم تبلغ أشدّكْ
فهوت عليك بصدرها
يوم الفراق لتستردّكْ،
بأشدّ من خفقان قلبي
يوم قيل خفرت عهدكْ

جَفْنُهُ عَلّمَ الغَزَل

جـفـنـهُ عـلّـمَ الـغـزلْ ومـن الـعـلـمِ مـا قـتـلْ
فـحـرقـنـا نـفـوسـنـا فـي جـحـيـم مـن الـقـبـلْ
ونـشَـدْنـا، ولـم نـزلْ، حُـلُـمَ الـحـبِّ والـشـبـابْ
حـلـمَ الـزهـرِ والـنـدى حُـلُـمَ الـلـهـوِ والـشـرابْ
هـاتِـهـا مـنْ يـدِ الـرِّضـى جـرعـةً تـبـعـثُ الـجـنـونْ
كـيـفَ يـشـكـو مـن الـظـمـأ مـن لـه هـذه الـعـيـونْ
يـا حـبـيـبـي، أكـلَّـمـا ضـمَّـنـا لـلـهـوى مـكـانْ
أشـعـلـوا الـنـارَ حـولـنـا فـغـدَوْنـا لـهـا دخـانْ
قُـلْ لـمـن لامَ فـي الـهـوى، هـكـذا الـحـسـنُ قـد أمـرْ
إن عَـشِـقـنـا. . . فـعـذرُنـا أنَّ فـي وجـهِـنـا نـظـره

في عيونِه خبَر

قد أتاكَ يعتذِرُ	لا تَسَلْهُ ما الخبرُ
كلَّما أطلتَ لهُ	في الحديثِ يختصر
في عيونِه خبرُ	ليس يكذبُ النظر
قد وهبتُه عمري	ضاعَ عندَهُ العمر
حبُنا الذي نشروا	من شذاهُ ما نشروا
صُوِّحَتْ أزاهرُهُ	قبلَ يُعْقَدُ الثمر
عدْ فعنكَ يؤنسُني	في سمائِه القَمر
قد وفى بموعِدِهِ	حينَ خانَتِ البشر

يا عاقِدَ الحاجبين

يا عاقدَ الحاجبيْن ... على الجبين اللُّجَينِ
إن كنت تقصد قتلي ... قتلتني مرتين
ماذا يُريبك مني ... وما هممتُ بشَينِ
أصُفرةٌ في جبيني ... أم رعشةٌ في اليدين
تمرُّ قَفْزَ غزالٍ ... بين الرصيفِ وبيني
وما نصبتُ شباكي ... ولا أذِنتُ لعيني
تبدو كأن لا تراني ... وملءُ عينكَ عيني
ومِثلُ فعلِكَ فعلي ... وَيلي من الأحمقين
مولايَ لم تبقِ مني ... حياً سوى رمقين
صبرتُ حتى براني ... وجدِي وقرَّبَ حَنيني
ستحرِمُ الشعرَ مني ... وليسَ هذا بَهيْن
أخافُ تدعو القوافي ... عليكَ في المشرقين

بيروت

فدتِ المنائرُ كلُّهُنَّ منارةً

هي في فم الدنيا هدىً وتبسُّمُ

ما جئتُها، إلا هداكَ معلِّمٌ

فوقَ المنابرِ، أو شجاكَ متيَّمُ

بيروت، هل ذرفَت عيونُكِ دمعةً

إلا ترشَّفها فؤادي المغرمُ

أنا من ثراكِ، فهلْ أضِنُّ بأدمعي

في حالتيكِ، ومن سمائِكِ ألهمُ

كم ليلةٍ عذراءَ، جاذَبها الهوى

أنا والعنادلُ والرُّبى والأنجمُ

لهفي عليكِ، أكلُّ يومٍ مُصرَعٌ

للحقِّ فيك، وكلُّ عيدٍ مأتمُ

والأمرُ أمرُكِ، لَو رجعتِ إلى الهُدى

الحبُّ يبني والتباغضُ يهدِمُ

ربَّاهُ، هل ترضى الشَّقاءَ لأُمةٍ

ما أذنَبتْ، إلا لأنكَ تحلمُ

عدلٌ قِصَاصُكَ، كم نبي جاءَهُم

وأرادَ أن يتجمعوا فتقسَّموا...

الصبا والجمال

الصبا والجمال ملكُ يَديْكِ ... أيُّ تاج أعزُّ من تاجيكِ
نصبَ الحسنُ عرشَه فسألنا ... من تراهَا لهُ فدلَّ عليكِ
فاسكُبي روحَكِ الحنونُ عليهِ ... كانسكابِ السماءِ في عينيك
كلما نافسَ الصِّبا بجمالٍ ... عبقريٍّ السنا نماهُ إليكِ
ما تُغنَّى الهَزارُ إلا ليُلْقي ... زفراتِ الغرام في أذنيكِ
سكرَ الروضُ سَكرةً صرعَتْهُ ... عندَ مجرى العبيرِ من نَهدَيكُ
قتلَ الوَردُ نفسَهُ حَسَداً مِنكِ ... وألقى دماهُ في وَجنتيكِ
والفراشاتُ ملَّتِ الزهرَ لَّما ... حدَّثتها الأنسامُ عن شفتيكِ
رفعوا مِنكِ للجمالِ إلهاً ... وانحنوا سجَّداً على قدَمَيْكِ

أرقُّ الحُسْن

يبكي ويضحكُ لا حزناً ولا فرحا … كعاشقٍ خطَّ سطراً في الهوى ومَحَا
من بسمةِ النجم همسٌ في قصائدِهِ … ومن مخالسَةِ الظبي الذي سنحا
قلبٌ تمرَّسَ باللذاتِ وهوَ فتىً … كبرعُمٍ لمستْهُ الريحُ فانفتحا...
ما للأقاحيَّةِ السمراءِ قد صرفَت … عنا هوَاهَا، أرَقُّ الحسنِ ما سَمَحَا
لو كنتِ تدرينَ ما ألقاهُ من شجنٍ … لكنتِ أرفقَ من آسى ومن صفحا
غَدَاةَ لوَّحتِ بالآمالِ باسمةً … لانَ الذي ثارَ وانقادَ الذي جمحا
ما همَّني ولسانُ الحبِّ يهتفُ بي … إذا تبسَّمَ وجه الدَّهرِ أو كلحا
فالروضُ مهما زَهَتْ قفرٌ إذا حُرِمَت … من جانِحٍ رفَّ أو من صادحٍ صدحا

خليل مطران

مُغاضبة

بَيْنِي وبَيْنَكِ يَا «سَلْمَى» مُغَاضَبَةٌ … أَنْتِ التي عَلَّمْتِنِي الحُزْنَ وَالأَرَقَا

وَأَنْتِ عَلَّمْتِ جَفْنَيَّ الفِرَاقَ فَمَا … تَلاَقَيَا طَرْفَةً إلاَّ لِيَفْتَرِقَا

وَأَنْتِ أَوْقَدْتِ في جَنْبِي الغَرَامَ فَمَا … رَقَدْتُ إلاَّ حَسِبْتُ المَهْدَ مُحْتَرِقَا

«سَلْمى» انْظُرِي الرَّوْضَةَ الغَنَّاءَ سَاكِنَةً … على نَعِيمٍ وَقَلْبِي ذَاكِياً قَلِقَا

مَن عَلَّمَ الزَّهْرَ أنْ يفترَّ لِيْ كَذِباً … وَبَاكِيَ السُّحْبِ أنْ يَنْدَى وَمَا صَدَقَا؟

وَنَائِحَ الطَّيْرِ إِيلاَمِيْ بِمَنْطِقِهِ … كَأَنَّهُ شَارِحٌ حَالِي بِمَا نَطَقَا؟

وَمَائِسَ الغُصْنِ إِغْرَائِي بِعَطْفَتِهِ … فَإِنْ دَنَوْتُ تَسَامَى نَافِراً فَرِقَا؟

هَذي ذُنُوبُكِ يا «سَلْمَى» جَعَلْتُ بِهَا … بَعْدَ الصَّفَاءِ حَيَاتِي مَوْرِداً رَنِقَا

قَالَتْ: أَلَيْسَ غَرِيمَ الشرِّ جَالِبُهُ؟ … فَإن تُعاقِبْ فَعَاقِبْ قَلْبَكَ النَّزِقَا

فَقُلْتُ: لا تَظْلُمِي هَذَا المُصَابَ فَقَدْ … ظَنَّ الهَوَى نِعْمَةً لَكِنْ أَصَابَ شَقَا

هَلْ مِنْ جُنَاحٍ عَلَى قَلْبٍ رَأى شَرَكاً … مِنْ غَزْلِ عَيْنَيْكِ أَنْ أَغْرَاهُ فَاعْتَلَقَا؟

فَلَيْتَنِي مِتُّ لاَ عَيْنِي إِلَيْكِ رَنَتْ … وَعلا فُؤادِي كَمَا شَاءَ الهَوَى خَفَقَا

قَالَتْ: كَأَنَّكَ بَعْدَ الحُبِّ تُبْغِضُنِي؟ … فَقُلْتُ: أَعْذَرَ قَال شَدَّ مَا وَمِقَا

«سَلْمَى» أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الضِّرَامَ إذَا … مَا شَبَّ في جَوْفِ طَوْدٍ رَاسِخٍ صُعِقَا؟

إِنِّي لأُبْغِضُ رُوْحِي عِنْدَكِ احتُبِسَتْ … وَدَمْعَ عَيْنَيَّ إِثْرَ الرُّوحِ مُنْطَلِقَا

وَأَبْغِضُ العُمْرَ مُمْسَاهُ وَمُصْبِحَهُ … وَفَجْرَهُ قَاتِلَ الآمَالِ وَالشَّفَقَا

وَأُبْغِضُ النَّاسَ لاَ مُسْتَثْنِياً أَحَداً … إلاَّ التي لَمْ تَدَعْ مِنْ مُهْجَتِي رَمَقَا

حُبّاً لِحُسْنِكِ يَا «سَلْمَى» وَإِنْ هُوَ لَمْ … يَسْتَبْقِ مِنِّي إلاَّ الرَّسْمَ وَالحَرَقَا

قَالَتْ وَقَدْ سَالَ دَمْعٌ من مَحَاجِرِهَا … أَسًى عَلَيَّ وَدَمْعِي بِالسُّرُورِ رَقَا

وَكَاشَفَتْنِي بِمَا تُخْفِي ضَمَائِرُهَا … وَهَكَذَا الزَّهْرُ إِنْ نَدَّيْتَهُ عَبِقَا!

فَدَتْكَ نَفْسِيَ مَشْغُوفاً شُغِفْتُ بِهِ … فَمُرْ مُطَاعاً وَلاَ رَأْيٌ لِمَنْ عَشِقَا

فَلَمْ أُجِبْ، وَعَدَتْ في الرَّوْضِ نَافِحَةٌ … مَالَتْ بِغُصْنَيْنِ بَعْدَ الصَّدِّ فَاعْتَنَقَا

مقتل بزرجمهر

إشتهر كسرى بالعدل، وكان بلا نزاع أعدل ما يكون الملك المطلق اليد في أحكام بلاده. فإن كان ما وصفناه في هذه القصيدة إحدى جنايات مثله في العادلين فما حال الملوك الظالمين؟

سَجَدُوا لِكِسْرَى إذْ بَدَا إجْلالَا ... كَسُجُودِهِم لِلشَّمْسِ إذْ تَتَلالاَ
يا أُمَّةَ الفُرْسِ العريقَةِ في العُلَى ... ماذا أحالَ بِكِ الأُسُودَ سِخَالا؟
كُنْتُمْ كِبَاراً في الحُرُوبِ أعِزَّةً، ... واليَوْمَ بِتُّمْ صَاغِرِينَ ضِئَالا
عُبَّادَ «كسرَى» مانحيهِ نُفُوسَكم ... ورِقَابَكُمْ والعِرْضَ والأَموالا
تَسْتَقْبِلُونَ نِعالَهُ بِوُجُوهِكُم، ... وَتَعَفِّرُونَ أذِلَّةً أوكَالاَ
التِّبرُ «كسرى» وَخدَهُ في فارس، ... ويَعُدّ أُمَّةَ فارِسٍ أرْذَالا
شَرُّ العِيَال عَلَيْهِمُ وَأعَقُّهُمْ ... لَهُمُ، وَيَزْعمُهُمْ عليهِ عِيالا
إنْ يُؤْتِهِمْ فضلاً يمُنُّ، وإن يَرُمْ ... ثَأراً يُبِدْهُمْ بالعَدُوِّ قِتالا
وإذا قَضَى يَوْماً قَضاءً عادِلاً، ... ضَرَبَ الأنامُ بِعَدْلِهِ الأمْثالا

❀ ❀ ❀

يا يوْمَ قَتْلِ «بُزَرْجُمُهْرَ» وقد أتوا ... فيهِ يُلَبُّونَ النِّداءَ عِجَالا
مُتَألِّبِيْنَ لِيَشْهَدُوا مَوْتَ الذي ... أَحْيَا البِلادَ عَدَالةً وَنَوَالا
يُبدونَ بِشراً، والنفوسُ كَظِيْمَةٌ ... يُجفِلْنَ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ إجْفَالا
تَجْلُو أسِرَّتَهُمْ بُرُوقُ مَسَرَّةٍ ... وقُلُوبُهُمْ تَدْمَى بِهِنَّ نِصَالا
وإذا سَمِعْتَ صِيَاحَهُمْ وَدَوِيَّهُم ... لَم تَدْرِهِ فَرَحاً ولا إعْوالا

❀ ❀ ❀

ويَلُوحُ «كسرَى» مُشْرِفاً من قَصْرِهِ ... شَمْساً تُضِيءُ مَهَابةً وَجَلالاَ
شَبَحاً «لأرموزَ» العظيمِ مُمَثِّلاً ... مَلِكاً يَضُمُّ رِداؤهُ رِئْبالا

يـزْهُـو بِـهِ الـعَـرْشُ الـرَّفـيـعُ كـأنّـهُ ... بِسَنَـى الـجَـوَاهِـرِ مُـشْـعَـلٌ إشْـعَـالا
وكَـأنَّ شُـرفَـتَـهُ مَـقَـامُ عِـبَـادَةٍ ... نُـصِـبَ الـتَّـكَـبُّـرُ فـي ذُراهُ مِـثَـالا
وَكَـأنَّ لُـؤْلُـؤةً بـقَـائِـمِ سَـيْـفِـهِ ... عَـيْـنٌ تَـعُـدُّ عَـلَـيْـهِـمِ الآجَـالا!

❀ ❀ ❀

ما كانَ «كسرى» إذْ طغى في قَوْمِهِ ... إلاَّ لِـمَـا خَـلَـقُـوا بِـهِ فَـعَّـالا
هُمْ حَكَّمُوهُ فاستَبَدَّ تَحَكُّماً، ... وَهُـمُ أرادُوا أنْ يَـصُـولَ، فَـصَـالا
والـجَـهْـلُ داءٌ قـد تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهُ ... فـي الـعَـالـمـيـنَ ولا يـزالُ عُـضَـالا
لـولا الـجَـهَـالَـةُ لـم يكـونُـوا كُلُّهُم ... إلاَّ خَـلائِـقَ إخْـوَةً أمْـثَـالا
لـكـنَّ خفضَ الأكثرينَ جَنَاحَهم ... رَفَـعَ الـمُـلُـوكَ وَسَـوَّدَ الأبْـطَـالا
وإذا رَأيْـتَ الـمَـوْجَ يَـسْـقُـلُ بـعْـضُـهُ ... ألـفَـيْـتَ تَـالِـيَـهُ طـغـى وَتَـعَـالـى
نَـقْـصٌ لِـفـطـرَةِ كُـلِّ حَـيٍّ لازِمٌ ... لا يَـرْتَـجِـي مَـعَـهُ الـحَـكِـيـمُ كَـمَـالا

❀ ❀ ❀

وإذا استَوَى «كسرَى» وَأجْلَسَ دُوْنَهُ ... قُـوَّادَهُ الـبُـسَـلاءَ والأقْـيَـالا
صَعَدَتْ إليهِ من الجماعَةِ صيحَةٌ ... كَـادَتْ تُـزَلْـزِلُ قَـصْـرَهُ زِلْـزَالا
وإذا الـوَزِيـرُ «بُـزَرْجُـمُـهـرُ» يـسـوقُـهُ ... جَـلاَّدُهُ مُـتَـهَـادِيـاً مُـخْـتَـالا
وتَروحُ حَوْلَهُما الجُموعُ وتَغْتَدِي ... كـالـمَـوجِ وَهْـوَ مُـدافَـعٌ يَـتَـتَـالَـى
سَخِطَ المليكُ عليهِ إثْرَ نَصيحَةٍ ... فـاقْـتَـصَّ مِـنْـهُ غَـوايَـةً وَضَـلالاَ
«أبُزَرْجُمُهرُ» حكيمُ فارسَ والورى ... يطأُ السُّجُونَ وَيَحْمِلُ الأغْلالا؟
«كسرَى» أتُبقي كُلَّ فَدْمٍ غاشِمٍ ... حيّاً، وَتُردي العادل المِفْضَالا؟
وَتَـدُقُّ فـي مَـرْأى الـرَّعِـيَّـةِ عُـنـقَـهُ ... لِيَمُوتَ مَوْتَ المجْرِمينَ مُذَالا؟
أيْـنَ الـتَّـفَـرُّدُ مـن مَـشُـوْرَةِ صَادِقٍ ... والحُكْمُ أعْدَلُ ما يكونُ جِدَالا؟
إنْ تَسْتَطِعْ فاشرَبْ من الدَّم خمرةً ... واجعَلْ جَمَاجِمَ عابِدِيكَ نِعَالا
واذْبَحْ ودَمِّرْ واستَبِحْ أعراضَهُمْ ... وامْـلأْ بـلادَهُـمْ أسًـى وَنَـكَـالا
فَلأنْتَ «كسرَى» ما تَرى تَحريمَهُ ... كـانَ الـحَـرامَ ومـا تُـحِـلُّ حَـلالاَ
وَلْـيَـذْكُـرَنَّ الـدَّهـرَ عَـدْلُـكَ بـاهِـراً ... وَلْـتُـحْـمَـدَنَّ خَـلائِـقـاً وفِـعَـالا

لَـوْ كـانَ فـي تـلـكَ الـنِّـعَـاجِ مُـقَـاوِمٌ لكَ، لـم تـجِـيءْ مـا جِـئْـتَهُ استِـفْـحَـالا
لـكِـنْ أرادَتْ مـا تـريـدُ مُـطِـيـعَـةً، وتَــنَــاوَلَــتْ مــنــكَ الأذَى إفْــضَــالا

❀ ❀ ❀

نَــادَاهُــمْ الــجــلاَّدُ: هــل مــن شــافــعٍ «لـبُـزُرْجُـمُـهـرَ» فـقـالَ كـلٌّ: لا. لا
وأدارَ «كـسـرَى» فـي الـجَـمـاعَـةِ طَـرْفَـهُ فَـرَأَى فَـتَـاةً كـالـصَّـبَـاحِ جَـمَـالا
تَسْبي مَحَاسِنُها القُلُوبَ وَتَنْثَني عَـنْـهَـا عُـيُـونُ الـنَّـاظِـرِيـنَ كَـلاَلا
بِـنـتُ الـوَزِيـرِ أتَـتْ لِـتَـشْـهَـدَ قَـتْـلَـهُ وتَـرَى الـسُّـفَـاةَ مـن الـرَّشَـادِ مُـدَالا
تَـفْـرِي الـصُّـفُـوفَ خَـفِـيَّـةً مَـنْـظُـورَةً فَـزِيَّ الـسَّـفِـيـنَـةِ لـلـحَـبَـابِ جِـبَـالا
بـادٍ مُـحـيَّـاهَـا، فَـأَيْـنَ قِـنَـاعُـهَـا؟ وَعَــلاَمَ شــاءَتْ أنْ يَــزُولَ فَــزَالاَ؟
لا عـارَ عـنـدَهُـمُ كـخَـلـعِ نِـسَـائِـهِـمْ أَسْـتَـارَهُـنَّ، ولَـوْ فَـعَـلْـنَ ثَـكَـالـى

❀ ❀ ❀

فَـأَشَـارَ «كـسـرَى» أنْ يَـرَى فـي أمْـرِهـا فَـمَـضـى الـرَّسـولُ إلـى الـفَـتـاةِ وَقَـالا:
مـولايَ يَـعْـجَـبُ كـيـفَ لـم تَـتَـقَـنَّـعي قـالَـتْ لَـهُ: أتَـعْـجُـبـاً وَسُـؤَالا؟
أُنْظُرْ، وَقَدْ قُتِلَ الحَكِيمُ، فَهَلْ تَرَى إلاَّ رُسُــومــاً حَــوْلَــهُ وظِــلالا؟
فارْجِعْ إلى الملكِ العَظِيمِ وقلْ لهُ: مـاتَ الـنَّـصِـيـحُ وعِـشْـتَ أنـعـمَ بَـالا
وبـقـيـتَ وحـدَكَ بـعـدَهُ رَجُـلاً، فَـسُـدْ وازِعِ الــنِّــسَــاءَ ودَبِّــرِ الأَطْــفَــالا
مـا كـانـتِ الـحَـسْـنَـاءُ تَـرفَـعُ سِـتْـرَهَـا لَـوْ أَنَّ فـي هـذي الـجـمـوعِ رِجـالا

❀ ❀ ❀

الياس أبو شبكة

من قصيدة «الصلاة الحمراء»

ربّاه عفوك، إني كافرٌ جانِ
جوّعت نفسي وأشبعت الهوى الفاني
تبعت في الناس أهواء محرّمةً
وقلت للناس قولاً عنه تنهاني
ولم أفق من جنون القلب في سبلي
إلاّ وقد محت الأهواء إيماني
رباه عفوك، إني كافرٌ جانِ

❀ ❀ ❀

وطّأتِ لي كنف الدنيا فقلت: قفي
يا نفس في منهل اللذات وارتشفي
ومال مذهب طبعي عن سجيّته
حتى تقلّب في بطل وفي صلفِ
وغاب عني إني عشبة نبتت
على جوانب إبريقٍ من الخزفِ
على جوانب إبريق إذا نظرت
عينٌ إلى عتقه انحطّت على تلفِ
فخّارة ذات نتنِ
قديمة كالزمان

مرّت قرون عليها
فحال لون الدهان
ومهّد النتن فيها
مسارب الديدان
فخّارة دنّستها
خواطر الإنسان
تخاصمت جانبيها
مظالم الأديان
كأنما الدين فيها
ضرب من الويل ثان
كم مرّة أوعدتها
ثوائر الغليان
وكم تفجّر فيها
بالأمس من بركان
تبقى قروناً طوالاً
وتمّحي في ثوان
خزّافها ذو حنانٍ
حيناً وذو سلطان
ينهى ويأمر بالصا
عقات والنيران
ديدانها مسكرات
بخمرة التيجان
والتاج، لو هي تدري،
معنى من البهتان

ربــــاه عـــفــــوك، إنــــي كـــافـــرٌ جـــانِ!

❁ ❁ ❁

تــرى مــشــيــئــتــك الــعــلــيــا تــنــاديــنــي
بــثــورة الــنــار فــي تــلــك الــبــراكــيــن؟
ربــاه! هــل يــنــتــهــي حــلــمــي بــبــارقــة
مــن الــلــهــيــب، ويــخــبــو الــطــيــن فــي الــطــيــن
وهــل أرى زاحــفــاً فــي الــلــيــل مــلــتــهــبــاً
بــجــمــرة الــســخــط فــي أيــدي الــشــيــاطــيــن
أدعــوك، والــظــلــمــة الــحــمــراء تــحــرقــنــي،
فــلا تــجــيــب، وتــلــوي لا تــنــجــيــنــي؟
أعــرضــت عــنــك غــداة الــقــلــب ضــلّــلــنــي
كــأن شــهــوة قــلــبــي عــنــك تــغــنــيــنــي
وحــيــن أُوقــظــت مــن ســكــر الــهــوى خــجــلاً
بــحــثــت عــنــك، وكــاد الــعــار يــخــفــيــنــي
فــلــم تُــمــل قــلــبــك الــرحــمــن عــن ألــمــي
وقــلــت: «تــطــلــبــنــي بــيــن الــمــســاكــيــن؟»

❁ ❁ ❁

لــكــنــنــي عــدت بــعــد الــ
تــفــكــيــر عــن تــيــهــانــي
إلــــى ذنــــوب جــــســــامٍ
كــــثــــيــــرة الألــــوانِ
مــــلّــــوثــــاتٍ بــــدمــــع
مــخــضــبــات بــقــانِ
وقــلــت لــلــقــلــب: «أطــلــق

فــي الــمــوبــقــات عــنــانــي
طــيــف الإلــه بــعــيــد
وعــيــنــه لا تــرانــي»
وقــيــل يــوم عــصــيــبٌ
يــنــقــضّ قــبــل الأوان
تــنــفّــذ الــنــار فــيــه
والــحــكــم لــلــديّــان
فــرحــت أســأل نــفــســي الــ
دفــاع عــن كــفــرانــي
فــلــم أجــد مــن يــحــامــي
عــنــي ســوى بــهــتــانــي
ربــاه عــفــوك، إنــي كــافــر جــانِ!

ـ أفاعي الفردوس ـ

التجلّي

من كتاب «غلواء» ـ العهد الثالث

إجرحِ القلبَ واسْقِ شعركَ منهُ … فدمُ القلبِ خمرةُ الأقلامِ

مصدرُ الصّدقِ في الشّعورِ هُوَ القلبُ … وفي القلبِ مهبِطُ الإلهَامِ

وإذا أنتَ لَمْ تُعَذّبْ وتغْمِسْ … قلماً في قرارةِ الآلامِ

فقوافيكَ زُخْرُفٌ وَبَريقٌ … كعِظامٍ في مدفنٍ مِنْ رُخَامِ

إذا القلبُ لمْ يُرَقَّقْ بحبّ … حجّرتْهُ ضغائِنُ الأيّامِ

والهوى دونَ أكْبُدٍ ليسَ يحيَا … فغذاءُ الهوى مِنَ الأجسَامِ

ضَحِّ بالقلبِ إنْ هَوِيتَ فليسَ … القلبُ إلا وليمةً للغَرامِ

يا لها في الهوى وليمةَ قلبٍ … سوف يبقى لها صدىً في الأنامِ

وَاشْقَ ما شِئْتَ فالشّقا مُحْرَقَاتٌ … صعدتْ مِنْ مذابحِ الأرحامِ

ربّ جرح قد صار ينبوع شعرِ … تلتقي عنده النفوس الظوامي

وزفيرٍ أمسى ـ إذا قدّسته الروح … ضرباً من أقدس الأنغامِ

وعذابٍ قد فاح منه بخورٌ … خالدٌ في مجامرِ الأحلامِ

أمين نخلة

على درب الريف

دروب الريف

الدرب في الريف غير الدرب في المدينة! فهي التي تنهض من وهدة إلى ربوة، وتدور من خلف شجرة، وتعرّج على عين ماء، وتتوقف في ظلٍّ حائط، وتنطرح على باب بيتٍ ـ تمشي على هواها، والدرب في المدينة تمشي في خطٍّ مستقيم...

والدرب في الريف بيضاء، تتلوى في خضرة، وهي في المدينة سوداء، فاحمةٌ، يعوزها الشجر، على الجانبين، لتأنس بعض الأنس، فوق ذلك السواد الطويل!

وعلى دروب الريف تعرف عابر السبيل من وقع خطوه، وعلى رصفات الشوارع تتشابه الأقدام، جميعاً، في الحركة.

وكل درب في الريف قديم. فيقال، عندنا: فلان حوّل دربه عنا ـ يعنون أنه غيّر عهده، أو يقولون: فلان حوّل الدرب إلى جهة كذا ـ يعنون أنه غيّر معالم الحدِّ، وخرج على القانون... لذلك تجد الدروب الريفية محطات للتذكر: فها هنا زفَّت عروس، وهناك خرجوا بنعشٍ، وهنالك وقفوا، ولوَّحوا بالمناديل...

خيمة البركة

في الريف ظلان يحلو لظهر الأرض حملهما: ظلُّ الشجرة، وظلُّ الفلاح!

يدل الأول على أن التربة جيدة، ويدل الآخر على أنها تعطي، فلا ينبغي أن تترك. فكأنَّ ظل الشجرة وفاءٌ من الأرض للفلاح، وكأنَّ ظل الفلاح وفاء منه للأرض!

والشجرة في الغابة كالرجل في الشارع: لها ألف نظير. فأما حين تنفرد في حقل، أو على رابية، أو عند منعطف طريق، فهي ملعب الريح، وملتقى الطير، ومائدته، ومرقص مناقيره بين الورق والثمر...

فيها خيمة البركة: هنيئاً لنا بانفرادك!

القمح

تهب الزعازع في كرة الأرض، ويجري الدم، وتلعلع الأصوات، من أجل القمح، لا من أجل الحلاوات بلباب الجوز واللوز!! فهذا «الخبز اليومي» ينبغي أن يتوفر كل يوم! والدم البشري يقات بالنشا، والأبهة التي يستشعرها الفلاح، حين ترقص رغفان الخبز تحت سقف بيته، لا تفقد بالهين!!

فأسأل الله لهذه الأتلام، الذاهبة في الحقول كالجداول أن تصب القمح في كل عام، وأن تسيل أماناً وسلاماً، وخوفاً من القانون!

وفي العلوم، اليوم، علم اسمه: علم القمح - وهو، في ما أعرف، أجدى العلوم الإنسانية! فأسأل الله أن يجيءَ يوم يقال فيه: فلان علامةٌ بالقمح، فهّامةٌ بالسنبل...

العلاقة الريفية

تقول للرجل من أهل الريف: كيف بيتك؟ فيقول: عليّة تنهض بين الرياح الأربع، ولا يخرق سطحها المطر! فتعجب له، وهو يقيم بذلك السكن الوادع، طوال عمره، لا يأكل الطيب، ولا يلبس الفاخر، ولا يجلس على الوطيء، كيف لا يتجافى عن مشقّة ولا يتأبه من قناعة!!

إن الديار، وبقاع المثوى، وتربة الصبا، هي التي تحضن الأذواق،

والأنساب، والطبائع ـ فضلاً عن التأريخ المحلي الذي يحفظ في مجرى ساقية، أكثر مما يصان في جوف كتاب! ففي هذه المروج الريفية، وكأنها من لجج، وفي هذه الأشجار، وكأنها من زمرد، يعيش واحدهم على طول اللبث تعلُّقاً بقبرٍ دارسٍ، مثلاً، لا بشجرةٍ فينانةٍ، تقلق في النسيم...

الزهرة الآدمية

المرأة في الريف أجلّ منها في المدينة، وشأنها فيه أمثل، وفضلها أتم.

وهي في حقل السنبل، أو على القطف، خلف العنب، أكرم يداً منها في جمعية الفنون الجميلة... فإن الأجر على قدر المشقة!

ومصاحبة المرأة للرجل، على العلات، حتى في أحقر مصايره، في الريف، بين التقلب والمعاش، أسطع برهاناً على كونها قد خلقت لمقارنته، من قيامها إلى جانبه في مناعم العيش، ولذائذ الملهى والمطعم.

غير إني لا أعرف في الحزن شيئاً يحرك النفس، ويستدعيها إلى الوحشة، من مثل وجه امرأة عابس، يطلع عليك، في الريف، بين الورق الأخضر، والماء الدافق... فكأن الرجل الريفي قد أيبس هذه الزهرة الآدميّة!

فيا رب: أدم أُلفة ما بينهما...

صلاة العنز (في الريف)

ربِّ! سجدت لك على ركبتي، وخفضت قرني، هذين، من فرط الخشية! فامسح الأرض عشباً، وورقاً أخضر، واطلق حياض الماء، واملأ الصهاريج، ومد بساط الظل في أذى الهواجر.

ربِّ! واجعل قلوب الرعيان تخفق من رحمة، وعصيهم تملس من ليان، وقصبات مزاميرهم تسيل من طرب.

ويا ربِّ! أسألك بالغمام إذا نهض، والغيث إذا سقط، وبهذه اللجج من الخضرة، كما أسألك بالزرب والمرعى، والقربة والعصا، وبالجلجل

وطنينه، وشبابة القصب وحنينها، أن لا ترسل بي إلى المدينة ـ آمين. . .

الأنهر الشتائية

هذه الأنهر الشتائية، التي تصب في الريف من فيض الكفاية، تهجم عليك بالكآبة، وتستقبلك بالانقباض. وليس ذلك من جهامة منظر، وقبح طلعة، بل من كونك تعرف، في ذات نفسك، كيف مصايرها في بوارح القيظ، يوم تجري الجداول، على بطائح العشب، بشفاء الغليل، وتدب هي، في قاع المجرى، بذابل علته خضرةٌ!

وهيهات أن يشفع بها، في عينك، اليوم، قاعدة جمال الأشياء التي لا تنفع شيئاً. . .

أغاني ريفية

أغنية الإبريق

على ذكرك الشهي تقوم القيامة في ضمير العطش، وفي طلعتك اللؤلؤية ترقص الأحشاء!

تصب في الحلق ـ يا شلال الشفاء، ومدد الجوف، وزغردة الانشراح ـ فينطفىء الغليل وتثلج الجوانح. كأن للماء المريء سبيلاً إلى النفس اليابسة!

ولأنت ـ أيها الإبريق ـ وعاء الانتعاش، وإناء الالتذاذ، وقربة الاستطابة، وجام القهقهة، وزق البلور الذائب، ودن البرد والسلام!! ويطول بي القول جداً قبل أن تفيك بعض الحق هذه الكلمات المبلولة بمعاني نعوتك...

ولقد أعرف إبريقاً في يد غضة، بضة، أخذ من لونها لونه، ومن شميمها شميمه، وجاء مكلّلاً بماء الزهر، أو بماء الورد، أو بماء تلك اليد... يتصبب ويلتمع! فإذا أقبل، حسبت أنه يهرول إليك، في حين أنك أنت تهرول! تأخذ بكفيك عنقه، وعروته، وتكاد لولا أهل المجلس، تأخذ بفمك بلبلته، تمصها مصّاً!!

ويا رب إبريق، سعت به أصابع ريفية ـ سالت في رشح الماء أصابعها... فلما وقع الإبريق في الأرض، أخذ أهل الريف يؤرخون بعام كسره...

أغنية المغزل

في صحن الدار المشتجر بالزرع، وبين المعاصم والدمالج، والغلائل، والقمصان الرقاق، يترنم المغزل ترنمه!

الله، الله، يا مغزل! ما أطرب دورانك في الأنامل الناعمة، ويا أضعاف طربك في الوقفة والحران.

ويا خيط المغزل: لا تنقطع! فبلاد الجبل أحق الديار بقميص العافية...

أغنية العين

يا نعمة لا تتوقف، ونغمة لا تنقطع: عجباً ليدك القادرة في الليف والخشب، وفي مهجة الحجر!

ويا زجاجاً صفا، وفضة سالت ـ لا غرف، ولا خوض، بل قلة ذات بركة، تفعل فعلها الأخضر في باب الخصب العميم: في مدحك استبحر الريف!

أغنية السنبلة

كرأس العظيم تنخفض من شاهق! على أن حشوها حبوب الشبع، واسمها مرادف البركة.

ويا رب سنبلة تخفق في الريح، فكأن الحلي في حركة، والحرير في خمش... حتى إذا ولت الريح، وانقضى مهرجان رفع الرأس، عادت السنبلة إلى سابق عهدها بالدعة.

فيا ريح: اذهبي، ويا سنبلة: اخفضي رأسك، من ثقل البركة، ولا حرج عليك!!

أغنية نسيم الجبل

نسيم الريح هو، كما تعلم، نسيب الروح، من قديم! وليس من ينازع في هذا النسب الطيب... إلا أن النسيم، في بلاد الجبل، هو العليل أبداً. فاعجب لابن عم الروح، كيف يذكي الذهن، ويبسط الطبع، وكيف تصفو به كدورة النفس، على ضعفه واعتلاله!!

وبعض الكلام يذهب في الريح. . . أما الأشواق والتحايا وبقية هذه الحمولة الباهظة، فإنها تذهب مع النسيم، يسير بها ملء مروجه. فاعجب له، وهو القطار اليومي، الذي يسحب كل ذلك، كيف لا يتباطأ، ولا يتورك، ولا يكذب المثل: «أخف من النسيم»!!

ويا أهل الجبل: نسيم بلادكم لا يموت، وإن كان عليلاً. . .

بولس سلامة

ألم

شوق إلى الموت

يـا مـوتُ يـا حـلـمَ الـخـيـالِ الـنـائـي — يـا صـبـحَ آمـالـي وحـلـوَ رجـائـي
شوقي إليك أشدُّ من غَصَصِ الهوى — وأشـدُّ مـن ولـعِ الـهـجـيـرِ بـمـاءِ
شـوقُ الـصـبـيـة نـوَّرت أكـمـامُـهـا — فـتـطـيَّـبَـتْ لـصـبـابـةٍ ولـقـاءِ
شوقُ الفريقِ إلى الضياءِ وقد هوى — مـتـرديّـاً فـي الـلـجَّـةِ الـسـوداءِ
يـا موتُ يـا ملكَ الحنانِ ظلمتَني — وأدرتَ سـمـعَـكَ عـن جـريـحِ نـدائـي
أتـرى يـروقُـكَ أن أعـيـشَ مـعـذَّبـاً — جـسـدي تـعـذِّبُـه نـيـوبُ عـيـاء

الجرح المريع

داءٌ تـخـلَّـل فـي الـعـظـامِ فـردَّهـا — فـلـذاً وأشـلاءً عـلـى أشـلاء
سالَتْ على حدِّ المباضعِ مُهجتي — فـشـفـارُهـا مـصـبـوغـةٌ بـدمـائـي
وتشابَهت مني الجراحُ فأصبَحتْ — حُـفـراً تَـضـلُّ بـهـا عـيـونُ الـرائـي
وادٍ تـقـطِّـعُـه الـكـهـوفُ كـأنّـمـا — جـسـمـي الـطـعـيـنُ مـغـاورٌ لـلـداءِ
جـرحٌ تـرى أطـرافَـه مـوصـولـةً — وتـكـادُ تـلـمـحُ بـيـنَـهـا أعـضـائـي
فـإذا تـحـرَّك عـنـدهـا قـلـبـي فـمـا — دقّـاتُـه إلاّ نـذيـرُ فـنـائـي
وتـشـيـعُ بـي حُـمَّـى تـهـدُّ مـفـاصـلـي — وتـدبُّ مـثـلَ الـحـيّـةِ الـرقـطـاء
فـأغـيـبُ فـي الـكـابـوسِ غـيـبـةَ سـابـحٍ — فـي الـنـارِ بـيـن الـحـسِّ والإغـمـاء

كأسُ الألم

كـأسـي عـلـى الألـمِ الـدويِّ شـربـتُـهـا — مـمـزوجـةً بـمـرارةٍ ودمـاء

لـم يـبـقَ لـلـنـدمـانِ بـعـدي قـطـرةٌ ... بـالـدنِّ فـي خـمّـارةِ الأرزاء
صـبـحـي أمـرٌ مـن الـمـسـاءِ فـعيشـتي ... مـوصـولـةُ الـظـلـمـاء بـالـظـلـمـاءِ
أوّاهُ لـو كـانَ الـرقـادُ يـزورُنـي ... لـرضـيـتُ مـن دنـيـاي بـالإغـفـاء
لا يـلـتـقـي جـفـنـايَ إلاّ خـلـسـةً ... فـكـأنّ بـيـنـهـمـا قـديـمَ عـداءِ
ألـمـي يـشـقُّ عـلـى الـخـيـالِ لـحـاقُـه ... فـيـتـيـهُ بـيـنَ الـبـحـرِ والـصـحـراء
هـو كـلُ آهـاتِ الـعـصـورِ تـجـمّـعـت ... مـرويّـةٌ بـمـدامـعِ الـشـهـداء
أيّـوبُ مـن أيّـوبُ؟ مـاذا خـطـبُـه؟ ... هـو قـطـرةٌ وأنـا خِـضـمٌّ بـلاء
فـإذا مـررتَ عـلـى الـجـريـحِ تـعـودُه ... فـلـقَـدْ أتـيـتَ مـدافـنَ الأحـيـاء

وحدَه

غربةُ المتألِّم

سوطُ العذابِ أطالَ سُهدَه فَرَثتْ لأنّتِهِ المِخدَّة
أناتُه الحمراءُ جَارِيةٌ مع الأنفاسِ وَقْدَه
لزِمَ الوسادةَ عُمرَه ما أطولَ الأعوامَ رَقْده
برِمَ السريرُ بعاشقٍ أعيا الأساة فلن تصدّه
لا الليلُ زحزحَهُ ولا وضح النهار أزالَ وَجدَه
زَفرَ الحديدُ ولا ملامةَ فالحديدُ أطاق جُهدَه

❀ ❀ ❀

عشتُ الغريبَ سماحةً ومروءةً وعُرى مودَّة
وأشدُّ آلامِ التغرُّبِ جهلُ منزلةٍ وشدَّه
جارُ الحسامِ قرابُه والغمدُ يجهلُ منهُ حَدَّه
بين الشهيدِ وأهلِه من شاسعِ الأبعادِ وَهْدَه
جَلَدٌ تجوزُ به العيونُ وتجهلُ الأحداقُ بُعدَه
والسهلُ أن جازَ المدى تتجاهلُ الأبصارُ نَجْده

❀ ❀ ❀

ليلُ المريض

كيفَ السبيلُ لغفوةٍ والهمُّ ساقَ إليك وَفْدَهْ
ليلُ المريضِ وهل له في العمرِ أو في الوقتِ مُدَّه
ليلٌ يضلُّ به الزمانُ فليسَ يعلمُ منهُ قصدَه

جمال لبنان

أرضُنا ربّةُ الدُنى، وزُبانا ... معدنُ المُرِّ والشذا والبخورِ
تمرحُ العينُ في التلالِ العذارى ... والرياحينِ والشعاعِ النثيرِ
مسرحُ القلبِ والخيالِ جمالٌ ... أعجزتْ هامُها طموحَ الطيورِ
أرزُها سدرةُ الجلالِ ارتفاعاً ... وانتهاءُ العلى وصرحُ العبيرِ
يتحدّى من الزمانِ عصوراً ... ومن الريح عصفةَ الزمهرير
تصدحُ الطيرُ بكرةً في حمانا ... حائماتٍ على المسيل الشجير
تتنادى من كلِّ غصنٍ لفيفٍ ... وتبثُّ الترتيلَ في المزمورِ
ناثراتِ الجناحِ فوقَ السواقي ... في غمامٍ من الحمامِ الصَبيرِ
أترى دولةُ الطيورِ تُصلّي ... مضمراتٍ التسبيحِ والتكبير
كلُّ نجدٍ من شُمِّ لبنانَ قدسٌ ... يستحثُّ النفوسَ للتطهير
فالكهوفُ الأبكارُ في سفحِ قاديشا ... تنادي الأرواحَ للتفكير
خلواتٌ للنفسِ تومضُ منها ... في صفاءِ الزبرجدِ المصهور
بركاتُ السماءِ تهمي على لبنانَ ... فيضاً من كفِّ ربٍّ قديرِ

من لبنان

جاورَ الأنجمَ واحتلَّ السحابا   جبلٌ مُهِّدَ للفردوسِ بابا
تستحمُّ الشمسُ في مفرقِهِ   فإذا غابَتْ فقسراً واغترابا
تحملُ الأضواءَ للدنيا وقدْ   نَقَلتْ عن جفنِ لبنان الخِضابا
ساجعاتُ الطيرِ غنّتهُ الهوى   فرواها الدوحُ شجواً وعتابا
واستبانَ الفجرُ في آكامهِ   أشقرَ الأذيالِ مخضلاً إهابا
تقطرُ الأنداءُ من جبهتِهِ   عبقتْ آساً وشيحاً وملابا
يا أخَا الأنوارِ وهّابَ السنى   طبتَ آفاقاً وماءً وهضابا
أرزُك التيّاهُ سِدرُ المنتهى   خلتُه في جنّةِ المأوى مآبا
غارُ قاديشا وفي أحنائهِ   طافَتِ الأجيالُ والتاريخُ جابا
كنتَ قبلَ الكونِ والدنيا على   راحةِ المبدِعِ لم تَبرحْ يبابا
هيكلَ الهيبةِ والسحرِ فلو   أمّهُ الخاطىءُ مختالاً لتابا
يا شَقيقَ النجم يا تاجَ الربى   ومحطَّ النسرِ عزّاً وطلاّبا
موئلَ العقبانِ أَن عزَّ الحِمى   واستشاطَ السيفُ واجتاحَ الرقابا
يا جبالَ الأزرِ يا أختَ السما   طابَ فيكِ الموتُ بعد العيش طابا
غَلْغَلَتْ في مهجتي الذكرى وقد   زحزحَتْ عن غورِ أحلامي النقابا
أنا لو مُتّعتُ فيها ساعةً   لشممتُ الصخرَ أو بستُ الترابا

من قصيدة «الميلاد»

أومأ النجمُ للمجوس الحيارى ... فدليل السماء في الركب سارا
ساطعاً فالتلال في حَلَك الإمساءِ ... تهمي سنىً وتُغضي وقارا
يا رياح الشمال كوني بساطاً ... واستقلّي عبر المدى الزوّارا
واستريحي هناك في قُدس غارٍ ... والثمي الشوك حوله والغبارا
بيت لحم في خاطر الدهر لاحت ... منذ كانت ذرّاتها أسرارا
عيلَ صبرُ الزمان يرنو إلى المولود ... وانهدّت القرون انتظاراً
وعيونُ النجوم ملءَ الدياجي ... هائماتٍ تستعجل الأدهارا
مُلبِسُ الكون عزّةً وسناءً ... يرتدي يوم عيده أطمارا
بين شيخٍ عفِّ الإزار وبكر ... اسمها العذب شرّف الأبكارا
جهل الكونُ قبلها أنّ في وُسْع ... الجميلات أن يعِشْنَ عذارى
خلعت حسنها على الليل طهراً ... فكسته من الصباح إزارا
أيها الطفل جئتَ والكون عارٍ ... نائم العقل والنفوس صحارى
فعزاء الأكوان قبلك وعدٌ ... أن سيأتي الذي يحلّ الأسارى
موعدٌ كحّل الرؤى برجاء ... فروته جفونها أسفارا
حالماتٍ بمولدٍ يبدأ التاريخ منه ... ويصطفيه مدارا
فيكون الطفلُ المعظّم أفقاً ... بين قطبيه يرصف الأعصارا
وأطلّت من الغياهب دنيا ... حَمَلَتْ بيرق السلام شعارا
دينها الحب والتسامح والغفران ... لا منّةً ولا استكبارا
أيُّها المهد ما ذكرناك إلاّ ... خُشَّعُ الهام نكسر الأبصارا
قلّما تسمع المعابد صوتاً ... يحمل القلب للسماء شرارا
وتكاد الأجراس تنهدُّ حزناً ... فتخال الرنين منها احتضارا
إن تعُدْ يا يسوع يوماً فلن ... تلقى رعاةً تلقي عليك الدثارا

وتضنُّ الثيران بالدفء، فالإنسان أعدى من لؤمه الأبقارا
علَّم النعجة الوديعة كبراً وعلى السيئات راض الحمارا
كذِبٌ ما تراه في عيدك الأسنى قصوراً تفجَّرت أنوارا
كان عيد الميلاد مجلى نعيم وَيْلَهُم حوّلوه عيد سكارى
مأتم الخلق فالطهارة خجلى أسبلت دمعها دماءً ونارا
كلُّ آتٍ إلاً يسوع يلاقي في ديار المنافقين ديارا
إن ترُمْ يا يسوع في الناس أبراراً تقاةً فهيّء المنظارا
لا يكاد المنظار يلقى مسيحياً ويلقى في كل صقع نصارى

سعيد عقل

أبـرقـع اسـمـكِ بـالأسـمـاء أخـتـرعُ،
وإنّـمـا مـنـك لا مـنـهـنّ بـي وجـعُ!
حتى لقد عدتِ زهر الزهر، أجمعه
آنـــا وآونـــة كـــالـــلّـــه أبـــتـــدعُ
بالبال إن بسمة من ثغرك ارتحلت
صوب النجوم، فقلب المنتهى ولعُ
ـ أجملَ منك لا ـ

حقّان!

حقان لا أبهى ولا أجملْ،
من مرمر نقش الغوى، من شمسْ...
لا للهوى - حذارِ! - لا للّمسْ...
يا ليتني أحمَلْ
- والفجر بردْ -
إليهما ضمّة وردْ.
وما الهناءُ؟
إغماض عينين على نبعي ضياءْ!
ثم ارتماء...
وطاب طاب الموت أن أقبلْ!

❀ ❀ ❀

حقّان لا أبهى ولا أعذبْ،
كالصحو مما احلوليا، كالوهْمْ!
ولو أنا الخالق أو لي سَهْمْ
لخلتني ألعبْ
حبّهما؟ اسكتْ، يا زَهَرْ،
ما البوح؟ ما وقع القوامْ؟
ما قبلة في المنتظرْ
أو في المنامْ؟

حبّهما ضوء قمرْ!

❀ ❀ ❀

حقان لا أعلى ولا أروغْ!
يرتعشان... فالجمال اثنانْ
أو لا فهذا الآنُ ليس الآن!
مَنِ الذي أبدعْ
طيفاً لطيفْ،
وحلماً، وليل صيفْ؟
يا للغريق،
وقد رنا من خلل الثوب الشفيفْ
صبح طريفْ
أغنيتان... انظر ولا تسمعْ!...

ـ أجمل منك لا ـ

بحر

أبيضٌ من غضب... هل
يضرب الشطُّ ببالي؟
صفحتي هذي التي
أكتب رجٌّ متتالِ
كلماتي النارُ... بعضٌ
من مجاذيف ارتحالِ
ليَ من نغمتها ما
ليَ من همّ الليالي
طافرٌ فيها... وتحتي
زورق مجنون حالِ
بيّعتْه الحلم يوماً
غجريات الجمالِ
وإلى أين؟... سلِ العاصف
أو هدّ الجبالِ
أنا بين الشيء، واللاشيء
مرميّ المآلِ
لون عينيّ به أضرِب
والكون سؤالي
أترى الردُّ أن أخلُقْ
أو فزِدْ حبّ الرمالِ
لا ولا كنت لعطشانِ

الفلا لمعةَ آلِ
ليضعْ فيّ أنا البحرُ
ويولد في خيالي
وإذا أشهقُ أو أغرقُ
في أبيضَ عالِ
قلمَ الهولِ، ألا
اكتبني على الموج لآلي

ـ أجراس الياسمين ـ

سياج الورد

سياجنا هيمان. يا بردُ
غلّ به أو يشعَلَ الوردُ
اقرسْ. لذيذ أنت عند الضحى
والورد أزرار ولا عدّ
قد أيقظتني ثم لم تنتظر
عصفورة جناحها ندّ
كلَّ صباح تتغاوى هنا...
والورد للأوّاه ينهدّ...
أحبها والنقط افتوتنت
حمراء بعد الصوت تسودّ
يا ليتها حطّت على خاطري
خطفاً وبعد ارتحلت بعد...
أحبها صدّاحة طلّقةً
كأنها الشعر الذي أشدو
ويهزج السياج، يمضي على
الأرجاء بالعطر... ويرتدّ...
وليلكيّ فوقُ من شرفة
لاح... فما طرْفي... وما السُّهد؟...
لو لم أنظر لما أفلت
الزمان مني وانتهى البَعدُ
وقد أطلّت من على خصرها

غنّى نطاق البُرد والبرُد
قطعة شمس قال. . . فاسمع بها
ولا تقرّب. . . علّها وعد. . .
هذا السياج الساكني ورده
أجمل منه شعرها الجعد.

ـ أجراس الياسمين ـ

ألعينيكِ؟

ألعينيكِ تأنّى وخطرْ،
يفرش الضوء على التلّ، القمرْ؟
ضاحكاً للغصن، مرتاحاً إلى
ضفة النهر، رفيقاً بالحجرْ؛
علّ عينيك إذا آنستا
أثراً منه، عرى الليل خدرْ.
ضوؤه، إما تلفتٌّ، ددٌ،
ورياحين فرادى وزُمرْ،
يغلب النسرين والفلّ عسى
تطمئنين إلى عطر ندرْ.
من ترى أنتِ، إذا بحت بما
خبّأت عيناك من سرّ القدرْ؟
حلم أيّ الجن؟ يا أغنيةً
عاش من وعد بها سحر الوترْ.

❀ ❀ ❀

نسج أجفانك من خيط السّهى،
كلّ جفن ظلّ دهراً ينتظرْ؛
ولك النسيان، ما أنت له،
هو مَلهىً منك أو مرمى نظرْ.
قبل ما كوّنتِ في أشواقنا،

سكرتْ مما سيعروها الفِكَرْ؛
قبلة في الظنّ، حسنٌ مغلقٌ،
مشتهىً ضُمّ إلى الصدر وفرْ.
وقع عينيك على نجمتنا
قصة تُحكى وبثٌّ وسمرْ،
قالتا: «ننظرُ»، فاحلولى الندى،
واستراح الظلّ، والنور انهمرْ.

❀ ❀ ❀

مفردٌ لحظك، إن سرّحتهِ،
طار بالأرض جناح من زهرْ،
وإذا هُدبك جاراه المدى،
راح كون تلو كون يُبتكرْ!

ـ رندلى ـ

مقتطفات

من «كتاب الورد»

رأيتك... «أنتِ الجمال» قلت؟

لا وإنما غفرتُ للدنيا زلازلها والحروب، لأن عينيك ذات يوم وقعتا عليها.

❀ ❀ ❀

اليوم ولدتُ في الشعر.

زارتني عيناك.

وفي أذني دحرجتا لي أكراً من كلماتك، فيها النار والربيع.

وفيها أنتِ.

❀ ❀ ❀

مزهوّة بي، فرحة، شهدتُكِ صبيحة أمس.

لكنك، وأنت في جنّات سهلنا، تلك التي آثرتْها أفروديت على الأولمب، وفي غاباتها أحبَّت أدونيس، لم تستهدي الشمس تتسرّق النظر إلى جسمك الإلهي ثم تغمز النجوم...

❀ ❀ ❀

ـ لا تنتظرني هذا المساء، يا حبيبي...

أختي الكبيرة متعبة، وسأتولّى وحدي سقاية سياج الورد.

ـ دعي سياج الورد يذبل، يا حبيبتي... إنه هو الذي يمنعني من القفز

إلى حديقتكم في ليلة حرّ، وقد غاب القمر.

❀ ❀ ❀

أخيراً وجدتك، يا حبيبي.

قل لجمالي أن ينهار على زندك...

هناك، يعود يشهق عالياً، كأنه بناية تلاعب الريح.

❀ ❀ ❀

ـ أحببتكِ كأننا أنت السماء وأنا نسر. ما تُرى سيظفر به النسر؟... كلّ ما يعرف هو أن يضرب بجناحيه ويعلو يأبى أن يحطّ.

ـ وأنا أحببتكَ، يا معبودي، لأن جناحيك أكبر من السماء.

❀ ❀ ❀

ـ تعالَي إلى قلبي... وأقفله عليك... وتعودي لا تهربين...

ـ من قال إنك تملكه، هذا القلب؟... منذ صبيحة أمس دعوت نفسي إليه... وسكنته وحدي سكنى زهرة البنفسج.

❀ ❀ ❀

فؤاد سليمان

شقائق النعمان

... متى تنبت شقائق النعمان الحمراء في جبلنا الحلو؟ أن ضلوع الجبل، يبست في هذا الصقيع!

وحنايا الصخور في شوق إلى الدفء...

... ترى متى تنبت شقائق النعمان الحمراء؟

ومتى تطلع على وجه الأرض باقات «بخور مريم» العذارى؟

ومتى تعود إلى جبلنا زهوة الربيع!!

ونعود نحن، مع الربيع،

نمرغ أنوفنا بالطيوب، نشم الطيوب في معابر الدروب، وحفافي الحقول؟

... وإنه لشتاء ثقيل، هذا الذي يخيم على قلوبنا وبيوتنا، نخرت في ضلوعنا، وخزات البرد، وجلدت جلودنا في الصقيع...

والعين كليلة لا تشرق فيها الأضواء، في الجبال العالية.

متى تنبت شقائق النعمان الحمراء؟

وتعود الأرض عندنا تغني في الخضرة والحمرة، في ألف لونٍ ولون؟

وهذا البلبل، على شباك نافذتي، عرفته أمس...

لقد فرّ من ضيعتنا في الجبل، ليطلب الدفء والعافية هنا... ما في حنجرته غناء...

لقد جلدت حنجرته في هذا البرد المميت. . .

إطلعي أيتها الشقائق الحمراء الحلوة،

إطلعي قبل أن يموت البلبل على شباك نافذتي. . .

ـ تموزيات ـ

صلاة العيد

يا الله!

من حمل الجلجلة، الذي مات على الصليب،

إلى راعي الصحراء العظيم، صاحب العصا الرهيبة،

والناس في هذا المشرق، يضجون بالدعاءات:

يا الله... يا الله...

وباسمك رفعنا الجبال العالية، هنا في الأرض...

وباسمك انحنت الجباه، لصيقة بالتراب...

وباسمك نحرنا الضحايا، على بوابات البيوت المعمرة لاسمك...

... وإلى كل شط غريب في مقالب الأرض، من عندنا، زورق باسمك

وعلى اسمك يذهب ويجيء... بحارة مشرقيون عتاق ما خشت مجاذيفهم في البحر، ألا وفيها من ضلوعك خسة،

ولا انتفضت قلوعهم في الريح، ألا ومن أنفاسك الإلهية فيها نفس...

ولا رست زوارقهم في شط، إلا وأنت ترسو بجانبهم، تنزل معهم.

يعمّرون لك قبّة هنا، ومأذنة هناك، ويهتفون باسمك في العلالي والأعالي:

يا الله! يا الله...

تحت سياط الجلاّدين الغليظة، من شعوب الأمم، هتفنا بك هتاف الإيمان...

في العبوديّات السوداء التي رافقت حياتنا، رأيناكِ حريّة وملاذا...

كانت جراحنا تنزّ القيح والدم، في الحديد، في المنافي، في الزنادين...

أطفالنا يموتون من الجوع والبرد عراة...

ونساؤنا في نساء الأرض سبايا.

وشبابنا، يموت معلقّاً في المشانق، ضحايا...

وعضَضْنا التراب وما كفرنا...

وكنت وصيّنا الأعظم، القيّم الأكبر على أرواحنا وعقولنا، وأرضنا ومائنا وهوائنا...

وما عصينا...

أجُبناً كانت حياتنا يا الله، أم أنه الإيمان الذي لا يظلم في النفس، مهما تكدّست الظلمات من حولها؟

أجهلاً كان يا الله، أم أنها المعرفة التي ما بعدها معرفة،

علمتنا أن لا حرية ولا نور ولا كرامة إلا مع الله وفي الله ومن الله؟

ونحن في الأرض يا الله، ما نزال ننحر على مذابح شهوات الوثنيين الأجلاف.

ونحن في الأرض، ما نزال يا الله، جباها لصيقة بالتراب!

وما نزال نحن، يا الله، عراة مُسَيّبينَ... فلا الجبال العالية، فيها الكنائس والجوامع، رَفعتْ من جباهنا...

ولا الضحايا التي نحرناها على اسمك، محت خطايانا...

ولا بحّارتنا المشرقيون، الذين زرعوك، خيراً وبركة، في الشطوط، عادوا إلينا بالخير والبركة.

والسياط في جلودنا،

والحديد في رقابنا...

واسمك العظيم على شفاهنا:

يا الله، يا الله...

ولا الإيمان نجّانا...

فهلاّ حللتنا من خطيئتنا السرمديّة يا ربي!

وهلاّ نجّيتنا، يا الله، مرة واحدة في العمر نعيش فيها، على اسم هذا الوطن وهذه الأرض، وهذا التراب، ولا شيء غيره،

مرة واحدة في العمر، والعمر كله بعد ذلك لاسمك وعلى اسمك...

ربِّ غفرانك!

ربِّ حنانك!

أنا بحار من المشرقيين،

في ضميري أنت، وفي حياتي بحارتك،

أنت...

وفي دمي أنت.

وزورقي في اليم، باسمك يتهادى

رب غفرانك!

رب حنانك!

- تموزيات -

سنديانة

. . . عندنا، في الجبل سنديانة. . . من لبنان، من أغلى ما في تربة لبنان من سنديان. . .

جذورها في التراب، تمتد في صمت وهدوء، شبيهين بصمت الأرض نفسها. . .

وأغصانها تعانق الفضاء بفرح، شبيهة بفرح الإنطلاق من السجن. . .

قالت لها العاصفة. . . سأمرغ جبهتك في التراب، يا هذه السنديانة!

سأعريك، فلا يبقى فيك غير الحطام اليابس،

لن تورق فيك بعد اليوم ورقة خضراء. . .

سأجيئك لهيباً في الصيف. . . وصواعق في الشتاء. . .

وحتى التراب في جذورك سأجعله تراباً يابساً لا تعيش فيه حياة!!

ويسمع الناس في الجبل، سنديانة الجبل تقول للعاصفة:

أنا للعواصف شرعت جبهتي! جبهتي في السماء يا عاصفة!

لن تحني عاصفة ما جبهةً لي. . .

جباهِ السنديان في بلاد الجبل لا تنحني في العواصف. . .

سأكسر عنفوانك وكبرياءك يا هذه العاصفة،

فلا ينكسر في شلح حتى ينكسر قبله عنقك. . .

. . . غابة السنديان في بلاد الجبل تشهد معركة الموت والحياة، بين السنديانة والعاصفة. . .

ـ تموزيات ـ

صلاح لبكي

بلادي

أحبكِ أغنيَّة في الثغور | وحلمَ هناءٍ ورهجَ حبورِ
وأمنية تتعرَّى المنى | لديها صغاراً كحلم الصغيرِ
وأهواك أسطورةً تكتسين ـ | انتفاضَ المدى وجلالَ العصورِ
على مفرق الدهر منك ائتلاقٌ | وفي مقل الشهبِ أفياءُ نورِ
أكرُّ على الزمن المنقضي | فألقاكِ في كلّ أمرٍ خطيرِ
وأي إله سطا في العصور | ولم يكُ منكِ وأيُّ أميرِ!

❀ ❀ ❀

أرى من خلال الزمان البعيد | قوافلَ تمتدُّ من شطّ صورِ
وتسري على هينمات الحداةِ | وتغدو على زقزقاتِ الطيورِ
فيرتقص الكونُ تيهاً ويزهو | ويرفل بالأرجوانِ الوثيرِ
وتغفو الكواكبُ في كل أفْقٍ | بعيدٍ نشاوى بهمسِ العطورِ.
وأُبصر أشرعةً جارياتٍ | على اليمّ لمَّاعةً في الأثيرِ
كسربٍ من الحور يعبثن ـ | بالزمرد مسترسلات الشعورِ.
تميلُ بما حملَتهُ وتمضي | خفافاً على بركات القديرِ
وتمتد أفياؤها فإذا ـ | الشطوط هياكلُ قدْسٍ وفيرِ

❀ ❀ ❀

بلادي فديتكِ وزَّعتِ في ـ | البرايا فؤادَكِ نجوى بخورِ
شرعْتِ السخاءَ وكوفيتِ عنهُ | من المجتدينَ بعقٍّ وزُورِ
مضى في العصورِ الطوالعِ مِنْ | سمائكِ طيرٌ ولا كالطيورِ

تخطّى السحاب ومرّغ بالشموس ـ جناحيه دونَ النسورِ
وألوى كثيرَ الحنان إلى ـ الفضاء ومات طعامَ السعيرِ
ولكنه نفضتْ نفسُهُ رمادَ الرّدى قبلَ يوم النشورِ

❀ ❀ ❀

ألا فانفضي الذل عنك وقومي، بلادي، على زغردات النفيرِ

ـ أرجوحة القمر ـ

موت حلم

أهواكِ دون رجاءِ … أهواك حتى انتهائي
ويسلم الحبّ بعدي … من عاديات الفناءِ
كأن حبّي شعاع … يجوب كلّ فضاءِ
يسعى وراء الدراري … وخلف هذي السماءِ.
حبّي مدى الدهر منه … وفسحة الأجواءِ
يا قطعة من خيال - … الإله في الأحياءِ
ما كان وجد فؤادي … لرغبة في لقاءِ
فالحلم يعشق حلماً … ويُفتدي بالهناءِ
وفي الجفون خريف … باكِ ولمح شتاءِ
وأنت بعدُ شروقٌ … في زحمة الأضواءِ
ومطرح من ربيعٍ … مخضوضر الأفياءِ
أمأتم خلف هذي … العيون خلف الرواءِ!
كأن حلماً كبيراً … يموت قبل المساءِ
فيا شقيقة نفسي … أهواك دون رجاءِ

- أرجوحة القمر -

اغتراب

أسفَ الروضُ علينا فبكانا   وشجا الوادي المغنّي وشجانا
كيف لا يجزعُ للبينِ ألمْ   نكُ أطياباً بِواديهِ حسانا؟
كلّ وردٍ حاملٌ منا شذاً   مسكرَ الفوح، وحبّاً وافتتانا
هذه الأدغالُ في السفحِ -   وفي جنبات السفحِ غضّتْ بهوانا
فروى الوزّالُ عنّا في الضحى   والعشيّات سلاماً وأمانا
ووشى الطيبُ إلى الناس بنا   فاستعنّا الليلَ فيه فأعانا
يا عيونَ الروض ان شطَّ بنا   عنكِ داعٍ فهجرناكِ زمانا
إنما نحملُ ريّاك إلى   آخر الدهرِ ولو فيكِ عصانا

- أرجوحة القمر -

صلاة

يـا ربِّ كـيـفَ أُعـلّـمُ الأطـيـارَ ـ غـيـر أسًـى وحـزنِ
أنـا كـلّ يـومٍ دافـنٌ أمـلاً أعـزَّ عـلـيَّ مـنّـي
فـإذا أتـى زمـنُ الـربـيـع ـ وقـيـلَ: غـنّ فـمـا أغـنّـي؟
فـاسْـتـبـقِ لـي أمـلاً ولـو أثـراً مـن الأمـل الأغـنِ

❀ ❀ ❀

أنـا بـالـيـسـيـرِ مـن الـرجـاءِ ـ قـنـعـتُ مـنـكِ فـلا تـضـنّ
سـأجـودُ مـنـهُ وأمـلأُ ـ الـدنـيـا فـيُـمـرعُ كـلُّ غـصـنِ
وأحـدِّثُ الآفـاق كـيـفَ ـ تـجـودُ أنـتَ وكـيـفَ تُـغْـنـي
وتـجـوبُ فـيـكَ قـصـائـدي ـ الـركـبـانَ مـنْ ظـعْـنٍ لـظـعْـنِ
تـهـمـي عـلـى الـتـعـبـيـنَ أنـداءً ـ وتـمـسـحُ كـلَّ جـفـنِ.
رُحـمـاكَ، رفـقـاً بـالـربـيـعِ إذا تـخـيـبُ أنـتَ ظـنـي
إنّ الـربـيـعَ لـمـن غـنـايَ ـ وشـأنـهُ فـي الـعـمـر شـأنـي
فـإذا يـجـيء وأنـتَ ـ تـمـنـعُـنـي الـهـنـاءَ فـمـنْ يُـغـنّـي؟

ـ أرجوحة القمر ـ

يعقوب صروف

الأوهام وتولّدها وتموّها

أخبرنا صديق صادق، رفيع المقام، أنه يعرف رجلاً إذا سألته أن يحضر لك نوعاً من الفاكهة، تفّاحاً، أو موزاً، أو برتقالاً، مدّ يديه في الهواء، وأعادهما مملوءتين بالفاكهة التي طلبتها، وقال: إنه رآه يفعل ذلك عياناً. وطلب منه مرّة أن يأتيه بخمسين جنيهاً فمدّ يديه في الهواء، وأعادهما مملوءتين بالذهب. ولا شبهة في أنّه قصّ علينا ما يعتقد صحّته، ولكن هل هو صحيح لذاته؟

نحن تجاه هذا الخبر بين أمرين، إمّا أن نصدّق أن بعض الناس يستطيعون أن يقطعوا الأثمار من الهواء، وأن يستخرجوا منه الذهب المسكوك، وإمّا أن نسلّم بأن بعض الناس يتوهّم أنه رأى ما لا حقيقة له.

أمّا الأمر الأوّل فينفيه اختبار البشر في كلّ العصور وكلّ البلدان. . .

وأمّا الأمر الثاني أو الفرض الثاني، وهو أن يتوهّم الإنسان أنه رأى ما لا حقيقة له، فكثير الوقوع، وما من أحد إلاّ ويرى كلّ يوم في أحلامه أموراً كثيرة لا حقيقة لها، وكثيراً ما يتخيّلها وهو صاحٍ. . .

وبديهيّ أنّنا إذا كنّا بين فرضين أحدهما مناقض لاختبار الناس في كلّ العصور والآخر لا يناقضه الاختبار، بل يؤيّده، وجب علينا أن نأخذ بالفرض الثاني لا الأوّل.

نسيب عريضة

سيان

سيّان أن تصغي للنصح أو تغضي ... يا نفس، فالآتي مثل الذي يمضي
العيش إذ يشفي كالعيش إذ يضني ... إن الذي يحيي بعض الذي يُفني
الطهر لا يدني والعهر لا يقصي ... فالكأس إن تطفح كالكأس في النقص
الجوهر السامي يبقى بلا رجس ... كم مومسٍ تمضي عذراء للرمس!
فافعل كما تهوى، يا قلب، لا تحذر ... إن كنت من تبر ما ضرّك المصهر؟

ـ الأرواح الحائرة ـ

النهاية

كفّنوه
وادفنوه!
أسكنوه
ظلمة اللحد العميقْ
واذهبوا، لا تندبوه فهو شعب
ميّت ليس يفيق

❀ ❀ ❀

ذلّلوه،
قتّلوه،
حمّلوه
فوق ما كان يطيقْ
حمل الذلّ بصبر من دهورٍ
فهو في الذلّ عريقْ

❀ ❀ ❀

هَتْك عرضٍ
نهب أرضٍ
شنق بعضٍ
لم تحرّكْ غضبهْ
فلماذا نذرف الدمع جزافا؟

ليس تحيا المطبهْ!

❀ ❀ ❀

لا وربّي
ما لشعبٍ
دون قلبٍ
غير موت من هبهْ
فدعوا التاريخ يطوي سرّ ضعف
ويصفّي كتبهْ

❀ ❀ ❀

ربّ ثارٍ،
ربّ عارٍ،
ربّ نارٍ
حرّكت قلب الجبانْ
كلّها فينا ولكن لم تحرّك
ساكناً إلاّ اللسان. . .

ـ الأرواح الحائرة ـ

أحمد شوقي

من قصيدة «جارة الوادي»

يا جارة الوادي طربت وعادني ... ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثّلت في الذكرى هواك وفي الكرى ... والذكريات صدى السنين الحاكي
ولقد مررت على الرياض بربوة ... غنّاء كنت حيالها ألقاك
ضحكت إليّ وجوهها وعيونها ... ووجدت في أنفاسها ريّاك
لم أدرِ ما طيب العناق على الهوى ... حتى ترفّق ساعدي فطواك
وتأودت أعطاف بانك في يدي ... واحمرّ من خفريهما خدّاك
ودخلت في ليلين فرعك والدّجى ... ولثمت كالصّبح المنوّر فاك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت ... عينايّ في لغة الهوى عيناك
لا أمسى من عمر الزمان ولا غدٌ ... جمع الزمان فكان يوم رضاك

من قصيدة «ملك الغربان وندور الخادم»

كان للغربان في العصر مليك … وله في النخلة الكبرى أريك
جاءه يوماً ندور الخادم … وهو في الباب الأمين الحازم
قال: «يا فرع الملوك الصالحين … أنت ما زلت تحبّ الناصحين
سوسة كانت على القصر تدور … جازت القصر ودبّت في الجذور
فابعث الغربان في إهلاكها … قبل أن نهلك في أشراكها».
ضحك السلطان من هذا المقال … ثمّ أدنى خادم الخير وقال:
«أنا لا أنظر في هذي الأمور، … أنا لا أبصر تحتي يا ندور».
ثمّ لمّا كان عام بعد عام … قام بين الريح والنخل خصام،
وإذا النخلة أقوى جذعها … فبدا للريح سهلاً قلعها،
فهوت للأرض كالتلّ الكبير … وهوى الديوان وانقضّ السرير.
فدها السلطان ذا الخطب المهول … ودعا خادمه الغالي يقول:
«يا ندور الخير أسعف بالصياح، … ما ترى ما فعلت فينا الرياح؟»
قال: «يا مولاي لا تسأل ندور، … أنا لا أنظر في هذي الأمور»

أبو القاسم الشابي

من قصيدة «إرادة الحياة»

إذا الشعب يوماً أراد الحياة،	فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ للّيل أن ينجلي،	ولا بدّ للقيد أن ينكسر.
ومن لم يعانقه شوق الحياة،	تبخّر في جوّها واندثر.
. . . كذلك قالت لي الكائنات،	وحدّثني روحها المستتر،
ودمدمت الريح بين الفجاج،	وفوق الجبال، وتحت الشجر
«إذا ما طمحت إلى غاية	ركبت المنى ونسيت الحذر
. . . ومن يتهيّب صعود الجبال	يعش أبد الدهر بين الحفر».
فعجّت بقلبي دماء الشباب،	وضجّت بصدري رياح أخر،
وأطرقت أصغي لقصف الرعود	وعزف الرياح ووقع المطر.
وقالت لي الأرض، لما سألت:	«أيا أمّ هل تكرهين البشر»؟
«أبارك في الناس أهل الطموح	ومن يستلذّ ركوب الخطر
والعن من لا يماشي الزمان،	ويقنع بالعيش، عيش الحجر
. . . ولولا أمومة قلبي الرؤوم	لما ضمّت الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة	من لعنة العدم المنتصر».
. . . وأعلن في الكون أنّ الطموح	لهيب الحياة وروح الظفر.

طه حسين

المزاج اللبنانيّ

أنهكني العمل، وأحرقني القيظ، وثقلت عليّ الحياة في مصر. أقبلت إلى لبنان، ألتمس فيه شيئاً من الراحة والاطمئنان واعتدال الجوّ. قصدته حين تقدّم فصل الصيف، وازدحمت الفنادق بالمصطافين، حتى استعان أصحابها أهل القرى، يضيفون عندهم من لا يجدون له مكاناً في فنادقهم.

مضيت إلى فندق، كان من أضخم الفنادق، وأرحبها، وأكثرها حجرات. تلقّاني صاحبه مشرق الوجه، باسم الثغر، عذب الحديث، لم يدع لي فرصة تسمح بسؤاله، وإنما مضى في التأهيل والتسهيل والترحيب، حتّى أغرقني، وأغرق من كان معي من الرفاق، في بحر من التحيات لا حدود له.

وكانت الساعة ساعة شاي، وإذا هو يضرب يداً بيد، فيقبل الخدم من كلّ صوب، فيلقي الأمر هنا وهناك، ويتلقّى منه الأمر هذا الخادم أو ذاك، ثم يعود إلينا مضيفاً تحيّة إلى تحيّة، ومردفاً ترحيباً بترحيب، كأنّه كان لي صديقاً حميماً، قد بعد العهد بيني وبينه، فهو سعيد باللّقاء المفاجىء بعد الفراق الطويل الأليم.

أنفقت في هذا الفندق شهراً وبعض الشهر، ناعماً بالراحة، والهدوء الذي يملأ القلب رضا، والنفس مرحاً، والعقل نشاطاً؛ عاكفاً على القراءة والإملاء.

كنت أظنّ أوّل الأمر، أنّ صاحب الفندق هذا، شخص نادر في كرمه، وترحيبه بالضيف. ولكنّي لم أكد أعرف اللبنانيين، وأتحدث إليهم، حتى استيقنت أنّ الكرم فيهم خلق قد فطروا عليه. وما أظنّ أحداً يجادلني في أنّ

اللبنانيّ هو أشدّ الشرقيين حبّاً للطبيعة، وتذوّقاً لمحاسنها، وقدرة على تصويرها.

قل: إنّ سحر لبنان هو مصدر هذا المزاج الخاصّ، أو علّل هذا المزاج بما شئت. ولكنّ امتياز اللبنانيّ في دقّة الحسّ، ورقّة الشعور، وترف الذوق، شيء ليس فيه شكّ.

من كتاب «بين بين»

توفيق الحكيم

الناسك وإبليس

اتخذ قوم شجرة، صاروا يعبدونها... فلم يكد الناسك يقترب منها حتّى ظهر له «إبليس» حائلاً بينه وبين الشجرة، وهو يصيح به:

- مكانك أيّها الرجل... لماذا تريد قطعها؟

- لأنّها تضلّ الناس.

- وما شأنك بهم؟ دعهم في ضلالهم.

- كيف أدعهم... ومن واجبي أن أهديهم؟!

- من واجبك أن تترك الناس أحراراً، يفعلون ما يحبّون.

- إنّهم ليسوا أحراراً... إنّهم يصغون إلى وسوسة الشيطان...

- أوتريد أن يصغوا إلى صوتك أنت؟

- أريد أن يصغوا إلى صوت الله..

- لن أدعك تقطع هذه الشجرة.

- لا بدّ لي من أن أقطعها.

فأمسك إبليس بخناق الناسك... وقبض الناسك على قرن الشيطان... وتصارعا طويلاً... إلى أن انجلت المعركة عن انتصار الناسك. فقد طرح الشيطان على الأرض، وجلس على صدره وقال له:

- هل رأيت قوّتي؟

- ما كنت أحسبك بهذه القوّة، دعني، وافعل ما شئت.

فخلّى الناسك سبيل الشيطان. . . وكان الجهدُ الذي بذله في المعركة قد نال منه. . . ورجع إلى صومعته، واستراح ليلته. . .

فتفكّر إبليس لحظة. . . ورأى أنّ النزال والقتال والمصارعة مع هذا الرجل لن تتيح له النصر عليه، فليس أقوى من رجل يقاتل من أجل فكرة أو عقيدة. فما من باب يستطيع إبليس أن ينفذ منه إلى حصن هذا الرجل غير باب واحد: الحيلة. . .

فتلطّف للناسك، وقال له بلهجة الناصح المشفق:

ـ أتعرف لماذا أعارضك في قطع هذه الشجرة؟ إني ما أعارض إلاّ خشية عليك، ورحمة بك. فإنّك بقطعها ستعرّض نفسك لسخط الناس من عبّادها. ما لك وهذه المتاعب تجلبها على نفسك؟. . . أترك قطعها وأنا أجعل لك في كلّ يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك. . . وتعيش في أمن وطمأنينة وسلامة.

ـ دينارين؟

ـ نعم. . . في كلّ يوم. . . تجدهما تحت وسادتك.

فأطرق الناسك مليّاً يفكّر ثم رفع رأسه وقال لإبليس:

ـ ومن يضمن لي قيامك بهذا الشرط؟

ـ أعاهدك على ذلك. . . وستعرف صدق عهدي. . .

ـ سأجرّبك. . .

ـ نعم. . . جرّبني. . .

ـ اتفقنا.

وضع إبليس يده في يد الناسك وتعاهدا. . . وانصرف الناسك إلى صومعته، وصار يستيقظ كلّ صباح ويمدّ يده، ويدسّها تحت وسادته فتخرج بدينارين، حتّى انصرم الشهر. وفي ذات صباح، دسّ يده تحت الوسادة فخرجت فارغة. لقد قطع إبليس عنه فيض الذهب. . . فغضب الناسك. . .

ونهض فأخذ فأسه... وذهب إلى قطع الشجرة. فاعترضه إبليس في الطريق، وصاح فيه:

ـ مكانك! إلى أين؟

ـ إلى الشجرة أقطعها.

فقهقه الشيطان ساخراً:

ـ تقطعها لأني قطعت عنك الثمن؟

ـ بل لأزيل الغواية وأضيء مشعل الهداية.

ـ أنت؟

ـ أتهزأ بي أيّها اللعين؟

ـ لا تؤاخذني. منظرك يثير الضحك.

ـ أنت الذي يقول هذا، أيّها الكاذب المخاتل؟

وانقض الناسك على إبليس وقبض على قرنه... وتصارعا لحظة... وإذا المعركة تتجلي عن سقوط الناسك تحت حافر إبليس. فقد انتصر وجلس على صدر الناسك مزهوّاً مختالاً يقول له:

ـ أين قوّتك الآن أيّها الرجل؟

ـ أخبرني كيف تغلّبت أيّها الشيطان.

ـ لمّا غضبت للّه غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتك... لمّا قاتلت لعقيدتك صرعتني، ولمّا قاتلت لمنفعتك صرعتك.

من كتاب «مدرسة المغفلين»

نزار قباني

خمس رسائل إلى أمي

- ١ -

صباح الخير... يا حلوه...
صباح الخير... يا قديستي الحلوهْ
مضى عامان يا أمّي
على الولد الذي أبحرْ
برحلته الخرافيّهْ
وخبّأ في حقائبه...
صباح بلاده الأخضرْ
وأنجمها، وأنهرها، وكلَّ شقيقها الأحمرْ
وخبّأ في ملابسه
طرابيناً من النعناع والزعترْ
وليلكةً دمشقيّهْ...

- ٢ -

أنا وحدي...
دخان سجائري يضجرْ
ومنّي مقعدي يضجرْ
وأحزاني عصافيرٌ...

تفتّش ـ بعد ـ عن بيدزْ
عرفت نساء أوروبا . . .
عرفت عواطف الإسمنت والخشبِ
عرفت حضارة التعبِ . . .
وطفت الهند، طفت السّندَ، طفت العالم الأصفرْ
ولم أعثر . . .
على امرأة تمشّط شعري الأشقرْ
وتحمل في حقيبتها . . .
إليّ عرائس السكّرْ
وتكسوني إذا أعرى
وتنشلني إذا أعثرْ
أيا أمي . . .
أيا أمي . . .
أنا الولد الذي أبحرْ
ولا زالت بخاطره . . .
تعيش عروسة السكّرْ
فكيف . . . فكيف يا أمي
غدوت أباً . . .
ولم أكبُرْ . . .

ـ ٣ ـ

صباح الخير، من مدريدُ
ما أخبارها الفلّهْ؟
بها أوصيك يا أمّاهْ . . .
تلك الطفلة الطفلهْ

فقد كانت أحبّ حبيبة لأبي...
يدلّلها كطفلتهِ
ويدعوها إلى فنجان قهوته
ويسقيها...
ويطعمها...
ويغمرها برحمته...
... ومات أبي
ولا زالت تعيش بحلم عودته
وتبحث عنه في أرجاء غرفته
وتسأل عن عباءته...
وتسأل عن جريدته...
وتسأل ـ حين يأتي الصيف ـ
عن فيروز عينيه...
لتُنثَر فوق كفّيه...
دنانيراً من الذهبِ...

ـ ٤ ـ

سلاماتٌ.
سلاماتٌ.
إلى بيت سقانا الحبّ والرّجمةْ
إلى أزهارك البيضاء... فَرحةِ (ساحة النجمةْ)
إلى تختي...
إلى كتبي...
إلى أطفال حارتنا...
وحيطان ملأناها...

بفوضى من كتابتنا . . .
إلى قطط كسولاتٍ
تنام على مشارفنا
وليلكةٍ معرّشة
على شباك جارتنا
مضى عامان . . . يا أمي
ووجه دمشق،
عصفور يخربش في جوانحنا
يعضّ على ستائرنا . . .
وينقرنا . . .
برفقٍ من أصابعنا . . .

ـ أحلى قصائدي ـ

نهر الأحزان

عيناكِ... كنهري أحزانِ
نهرَي موسيقى حملاني
لوراءِ... وراءِ الأزمان
نهرَي موسيقى قد ضاعا
سيّدتي، ثمّ أضاعاني
الدمع الأسود... فوقهما
يتساقط أنغامَ بيانِ
عيناك، وتبغي وكحولي
والقدح العاشر أعماني
وأنا في المقعد... محترق
نيراني تأكل نيراني
أأقول أحبك... يا قمري
آهٍ... لو كان بإمكاني
فأنا لا أملك في الدنيا
إلاّ عينيك... وأحزاني

***

سفني في المرفإ باكيةٌ
تتمزق فوق الخلجانِ
ومصيري الأصفر حطّمني
حطّم في صدري إيماني

أأسافر دونك ليلكتي
يا ظلّ الله بأجفاني
يا صيفي الأخضر، يا شمسي
يا أجمل... أجمل ألواني
هل أرحل عنك... وقصتنا
أحلى من عودة نيسانِ
أحلى من زهرة غاردينيا
في عُتمة شَعرِ إسباني
يا حبّي الأوحد... لا تبكي
فدموعك تحفر وجداني
إني لا أملك في الدنيا
إلاّ عينيك... وأحزاني

* * *

أأقول أحبك... يا قمري
آهِ... لو كان بإمكاني
فأنا إنسان مفقودٌ
لا أعرف في الأرض مكاني
ضيّعني دربي... ضيّعني
إسمي... ضيّعني عنواني...
تاريخي! ما لي تاريخ
إني نسيان النسيانِ
إني مرساة لا ترسو
جرح بملامح إنسانِ
ماذا أعطيك؟ أجيبيني

قـــلـــقـــي؟ إلـــحـــادي؟ غـــثـــيـــانـــي؟
مـــاذا أعـــطـــيـــك ســـوى قـــدرٍ
يـــرقـــص فـــي كـــف الـــشـــيـــطـــانِ

❀ ❀ ❀

أنـــا ألـــف أحـــبـــك... فـــابـــتـــعـــدي
عـــنـــي... عـــن نـــاري ودخـــانـــي
فـــأنـــا لا أمـــلـــك فـــي الـــدنـــيـــا
إلاّ عـــيـــنـــيـــك... وأحـــزانـــي

- أحلى قصائدي -

مكابرة

تُراني أحبّكِ؟ لا أعلمُ
سؤال يحيط به المبهمُ
وإن كان حبي افتراضاً. لماذا؟
إذا لحتِ طاش برأسي الدمُ
وحار الجواب بحنجرتي
وجفّ النداء... ومات الفمُ
وفرّ وراء ردائك قلبي
ليلثم منك الذي يُلثمُ
تُراني أحبّكِ؟ لا. لا. محالٌ
أنا لا أحبّ... ولا أُغرمُ

❀ ❀ ❀

وفي الليل تبكي الوسادة تحتي
وتطفو على مضجعي الأنجمُ
وأسأل قلبي: أتعرفها؟
فيضحك مني، ولا أفهمُ
تُراني أحبّكِ؟ لا. لا. محالٌ
أنا لا أحبّ... ولا أُغرمُ

❀ ❀ ❀

وإن كنت لست أحبّ، تراهُ
لِمَنْ كلّ هذا الذي أنظمُ؟

وتــلـــك الـــقـــصـــائـــد أشـــدو بـــهـــا
أمـــا خـــلـــفـــهـــا امـــرأةٌ تُـــلـــهـــمُ؟
تُـــرانـــي أحـــبّـــكِ؟ لا. لا. مـــحـــالٌ
أنـــــا لا أحـــــبّ... ولا أُغـــــرمُ

❀ ❀ ❀

إلـــى أن يـــضـــيـــق فـــؤادي بـــســـرِّي
أُلـــحّ. وأرجـــو. وأســـتـــفـــهـــمُ
فـــيـــهـــمـــسُ لـــي: أنـــت تـــعـــبـــدُهـــا
لـــمـــاذا تـــكـــابـــرُ... أو تـــكـــتـــمُ؟

ـ قالت لي السمراء ـ

يا ست الدنيا يا بيروت

ـ ١ ـ

يا ست الدنيا يا بيروتْ...
من باع أساورك المشغولة بالياقوتْ؟
من صادر خاتمك السحريَّ،
وقصّ ضفائرك الذهبيّهْ؟
من ذبح الفرح النائم في عينيك الخضراوينْ؟
من شطّب وجهك بالسكّينِ،
وألقى ماء النار على شفتيك الرائعتينْ
من سمّم ماء البحر، ورشّ الحقد على الشطآنِ
الورديّهْ؟
ها نحن أتينا... معتذرين... ومعترفينْ
أنّا أطلقنا النار عليك بروح قبليّهْ...
فقتلنا امرأة... كانت تدعى (الحريّهْ)...

ـ ٢ ـ

ماذا نتكلّمُ يا بيروتُ...
وفي عينيك خلاصة حزن البشريّهْ
وعلى نهديك المحترقين... رماد الحرب الأهليّهْ
ماذا نتكلّم يا مروحة الصيف، ويا وردته الجوريّهْ
من كان يفكّر أن نتلاقى ـ يا بيروت ـ وأنت خرابْ؟
من كان يفكّر أن تنمو للوردة آلاف الأنيابْ؟

من كان يفكّر أن العين تقاتل في يوم ضدّ الإرهابْ؟
ماذا نتكلّم يا لؤلؤتي؟
يا سنبلتي...
يا أقلامي...
يا أحلامي...
يا أوراقي الشعريّهْ...
من أين أتتك القسوة يا بيروتْ،
وكنت برقّة حوريّهْ...
لا أفهم كيف انقلب العصفور الدوريُّ...
لقطّة ليل وحشيّهْ...
لا أفهم أبداً يا بيروتْ
لا أفهم كيف نسيت الله...
وعدت لعصر الوثنيّهْ...

ـ ٣ ـ

قومي من تحت الموج الأزرق، يا عشتارْ
قومي كقصيدة وردٍ...
أو قومي كقصيدة نارْ
لا يوجد قبلك شيءٌ... بعدك شيءٌ... مثلك شيءٌ...
أنت خلاصات الأعمارْ...
يا حقل اللؤلؤِ...
يا ميناء العشقِ...
ويا طاووس الماءْ...
قومي من أجل الحب، ومن أجل الشعراءْ
قومي من أجل الخبز، ومن أجل الفقراءْ

الحب يريدك... يا أحلى الملكاتْ...
والرب يريدك، يا أحلى الملكاتْ
ها أنت دفعت ضريبة حسنك مثل جميع الحسناواتْ
ودفعت الجزية عن كلّ الكلماتْ...

ـ ٤ ـ

قومي من نومكِ...
يا سلطانة، يا نوّارة، يا قنديلاً مشتعلاً في القلبْ
قومي كي يبقى العالم يا بيروتُ...
ونبقى نحن...
ويبقى الحبّ...
قومي...
يا أحلى لؤلؤة أهداها البحرْ
الآن عرفنا ما معنى...
أن نقتل عصفوراً في الفجرْ
الآن عرفنا ما معنى...
أن ندلق فوق سماء الصيف زجاجة حبرْ
الآن عرفنا...
أنّا كنّا ضدّ الله... وضدّ الشعرْ...

ـ ٥ ـ

يا ست الدنيا يا بيروتْ...
يا حيث الوعد الأول... والحب الأولْ...
يا حيث كتبنا الشعر...
وخبئناه بأكياس المخملْ...

نعترف الآن... بأنّا كنّا يا بيروتُ،
نحبّك كالبدو الرحّلْ...
ونمارس فعل الحب... تماماً
كالبدو الرحّلْ...
نعترف الآن... بأنك كنت خليلتنا
نأوي لفراشك طول الليل...
وعند الفجر، نهاجر كالبدو الرحّلْ
نعترف الآن... بأنّا كنّا أميّينَ...
وكنّا نجهل ما نفعلْ...
نعترف الآن، بأنّا كنّا من بين القتلهْ...
ورأينا رأسك...
يسقط تحت صخور الروشة كالعصفورْ
نعترف الآن...
بأنّا كنّا ـ ساعة نُفّذ فيك الحكمُ ـ
شهود الزورْ...

ـ ٦ ـ

نعترف أمام الله الواحد...
أنّا كنّا منك نغارُ...
وكان جمالك يؤذينا...
نعترف الآن...
بأنّا لم ننصفك... ولم نعذرك... ولم نفهمك...
وأهديناك مكان الوردة سكّينا...
نعترف أمام الله العادل...
أنّا راودناك...

وعاشرناك...
وضاجعناك...
وحمّلناك معاصينا...
يا ست الدنيا، إن الدنيا بعدك ليست تكفينا...
الآن عرفنا... أن جذورك ضاربة فينا...
الآن عرفنا... ماذا اقترفت أيدينا...

ـ ٧ ـ

الله... يفتّش في خارطة الجنة عن لبنانْ
والبحر يفتّش في دفتره الأزرق عن لبنانْ
والقمر الأخضرُ...
عاد أخيراً كي يتزوّج من لبنانْ...
أعطيني كفك يا جوهرة الليل، وزنبقة البلدانْ
نعترف الآن...
بأنّا كنّا ساديّين، ودمويّين...
وكنا وكلاء الشيطانْ
يا ست الدنيا يا بيروتْ...
قومي من تحت الردم، كزهرة لوز في نيسانْ
قومي من حزنك...
إن الثورة تولد من رحم الأحزانْ
قومي إكراماً للغاباتِ...
وللأنهار...
وللوديانْ...
قومي إكراماً للإنسانْ...
إنّا أخطأنا يا بيروتُ...

وجئنا نلتمس الغفرانْ...

ـ ٨ ـ

ما زلت أحبّك يا بيروت المجنونهْ...
يا نهر دماء وجواهرْ...
ما زلت أحبك يا بيروت القلب الطيّبِ...
يا بيروت الفوضى...
يا بيروت الجوع الكافر... والشبع الكافرْ...
ما زلت أحبك يا بيروت العدلِ...
ويا بيروت الظلمِ...
ويا بيروت السبْيِ...
ويا بيروت القاتل والشاعرْ...
ما زلت أحبك يا بيروت العشقْ...
ويا بيروت الذبح من الشريان إلى الشريانْ...
ما زلت أحبك رغم حماقات الإنسانْ
ما زلت أحبك يا بيروتُ...
لماذا لا نبتدىء الآنْ؟؟

من كتاب
«إلى بيروت الأنثى مع حبي»

المصادر والمراجع

١ ـ «تاريخ لبنان»، فيليب حتي، دار الثقافة، ١٩٦٨.

٢ ـ «جبران خليل جبران»، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ١٩٧٨.

٣ ـ «الغربال»، ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.

٤ ـ «في الغربال الجديد»، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ١٩٧١.

٥ ـ «المراحل»، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ١٩٧١.

٦ ـ «كتاب مرداد»، ميخائيل نعيمة، دار صادر، ١٩٦٦.

٧ ـ «همس الجفون»، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ١٩٨٨.

٨ ـ «دمعة وابتسامة»، جبران خليل جبران، دار صادر.

٩ ـ «العواصف»، جبران خليل جبران، دار صادر.

١٠ ـ «البدائع والطرائف»، جبران خليل جبران، دار صادر.

١١ ـ «التطرّف والإصلاح»، أمين الريحاني، مطابع صادر ريحاني، ١٩٥٠.

١٢ ـ «هتاف الأودية»، أمين الريحاني، ١٩٥٥.

١٣ ـ «الياس أبو شبكة في غلواء»، سامي ج. خوري والياس رحيّم، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٠.

١٤ ـ «أفاعي الفردوس»، الياس أبو شبكة، دار المكشوف.

١٥ ـ «الخمائل»، إيليا أبو ماضي، دار العلم للملايين.

١٦ ـ «تبر وتراب»، إيليا أبو ماضي، دار العلم للملايين.

١٧ ـ «الجداول»، إيليا أبو ماضي، دار العلم للملايين.

١٨ ـ «رندلى»، سعيد عقل، منشورات نوفل، ١٩٧١.

١٩ ـ «أجراس الياسمين»، سعيد عقل، منشورات نوفل.

٢٠ ـ «كتاب الورد»، سعيد عقل، مكتبة نداف، ١٩٧٢.

٢١ ـ «أجمل منك لا»، سعيد عقل، المكتب التجاري، ١٩٦٠.

٢٢ ـ شعر الأخطل الصغير.

٢٣ ـ «أرجوحة القمر»، صلاح لبكي.

٢٤ ـ «تموزيات»، فؤاد سليمان، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٥.

٢٥ ـ «أحلى قصائدي»، نزار قباني، منشورات نزار قباني، ١٩٩٢.

٢٦ ـ «قالت لي السمراء»، نزار قباني، منشورات نزار قباني، ١٩٩٣.

٢٧ ـ «إلى بيروت الأنثى مع حبي»، نزار قباني، منشورات نزار قباني، ١٩٩٧.

٢٨ ـ «المفكرة الريفية»، أمين نخلة.

المحتويات